وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

شهرزاد رجلاً

رواية

محمد أبو معتوق

قصص وروايات 20

شهرزاد رجلاً

محمد أبو معتوق

شـــهرزاد رجــلاً

روايـــة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

قصص وروايات

((٢٠))

الإهــــــداء

إلـــى ضحـــى . . .

شهرزادي الصامتة . . .

الليلة الأولى

(عندما أعلن برهان الأحنف
الإضراب عن الكلام..)

في مكانٍ بالغِ السرية والضيق.. عاشت فيهِ خمسُ دجاجاتٍ وديك.. وقعت أحداثُ قصتنا الغريبة، وهي قصةٌ لو كُتبتً بالإبر على أوراقِ الشجر، لأعشت المبصرين.. و لزينت الحياة لفاقدي البصر.

قصةٌ لو سمعَ بها ابن خلدون.. لجعلها مقدمة أولى لكتابِ العِبر.. والمبتدأ والخبر.. إلى آخر الديباجة.

القَصة بدأت عندما أقسم السيد برهان الأحنف على الإضراب عن الكلام كما يفعل الفلاسفة، وليس الإضراب عن الطعام كما يفعل السجناء السياسيون.. وكانت للأحنف أسبابه الموضوعية فالإضراب عن الكلام فقط،لا يثير اللغط والانتباه. ويبقى على صاحبهِ في زمرةِ الأحياء.

أمَّا الإضراب عن الطعام في ديارنا.. فيعتبرُ صياماً وتبتُّلاً وتقرُّباً من الله. وليس معارضةً للحكومة والزمان.

لذلك بالغ الأحنف بالإخلاص لقسمه.. وتابع الإضراب عن الكلام.. عدداً من الأيام حار في عـــدتها موظفـــو الضرائب والمؤرخون العظام.

وبسبب إضراب الأحنف عن الكلام.. اضــــطرب مريدوه والشامتون به، ووقعوا في الريبة والهزال وقد بالغ الأحنف في الصمت والتهام الطعام.. حتّى صار علماً في طريقتهِ وضخامة معرفته وجثته، أمَّا لماذا كان إعلان الأحنف الإضراب عن الكلام حدثاً بالغ الأهمية.. فللأمر أسباب سنمعن في تفصيلها حتى لا نترك في الحياة فسحة لطالب علم أو لطالب أجر.

فعندما يعلن أي كائنٍ من خلقِ الله الإضراب عـــن الكلام.. يكون هذا الإعلانٌ حدثاً عابراً لا يلتفت إليـــهِ السابلة، ولا الرجال القاعدون على المصطبة.

أمَّا عندما يتجرَّأ واحدٌ من الرجال اســـمهُ برهـــان الأحنف على إعلان الإضراب، وهو صاحب المصطبة والدكان، فذلك حدثٌ عظيمٌ يهون أمامهُ الزلزال..

- نسينا أن نقول أن الأحنف ودكّانهُ الواقعة في نقطة التقــاطع والـــذهول بـــين دروب الحـــارة والزمـــان.. متخصِّصان في بيع الألبسة الداخلية الهفهافة والعطـــور وأدواتِ التجميل التي تخصُّ النساء.. والأحنف ذاتـــه..

صاحب المصطبة ورافع بنيانها ومثبت أركانها.. قد تمكَّن بفعل الإصرار والمزاولة أن يحوِّل المصطبة بفضل موقعها والدروب المتقاطعة التي تجاورها.. إلى مقهى صيفي أو برلمان مسائي مصغَّر، متخصِّص بمناقشة أمور الحارة، ومشكلاتِها الصغيرة، مع الحرص على إلقاء المشكلاتِ الكبيرة التي تشغل بال الحارة والعالم في حاوية النسيان المجاورة.

وكان الإلقاء يتم بسرية بالغة حتَّى لا يصير الأحنف والدكان في خبر كان.. أمَّا التقليد الأبرز الذي يميِّز اجتماعات المصطبة، فهو البيان الختامي اليومي الذي يلقيهِ برهان الأحنف على الروَّادِ القاعدين و المتحلِّقين والواقفين والذاهلين الذين أصبحت خطابات الأحنف وبياناتهِ المطوّلة وحدها من يزيّن لبعضهم العيش ووحدها من يدفع بعضهم الآخر للموت برويّة واطمئنان.

فالموت في الحارة حدثٌ أليف يحدث دونَ ضغينة، ودون أسئلة محرجة.. والذاهب إلى الموت من أهل الحارة وروَّاد المصطبة، لا يخطر بباله أن يرفع كفِّيهِ بالدعاء على الأحنف، ولا الدعاء لهُ.. حتَّى لا يقلق بال السموات. ولأن البيانات اليومية التي يلقيها الأحنف لم تكن بيانات ختامية، ولم تكن مقلقة، لذلك امتلك الجميع فضيلة

الإصغاء وامتلك الأحنف فضيلة الإلقاء، وكـــان شـــديد الإخلاص لكلامهِ وطريقتهِ المؤثِّرة في إلقاء الخطاب.. حيث يأخذه الانفعال بالإلقاء بعيداً إلى الحد الذي يندفع فيهِ بسبب الحالة والوجد ليحمل أحد جلساء المصطبة ملقياً بهِ في الهواء وكأنه جزء لا يتجزَّأ من الخطاب.

ولم يكن أحد من الحاضرين.. يتجرَّأ على الإلتفات إلى الرجل الطائر حتى لا يرتبك المشهد ويضطر الأحنف إلى حرمان الملتفت من نعمة الجلوس على المصطبة ونعمة الإصغاء للخطاب. أحد الناجين.. وبعد أن أصغى للخطاب الأخير للأحنف، طالب الحاضرين بالصبر والتريُّث ثمَّ أردف فقال:

- ما دمنا نحتمل بيانات الحكومة.. ونصغي لها.. فعلينا أن نحتمل الأحنف وبياناتهِ لنكون من الـــصابرين الأبرار.

وعندما أتمَّ الرجل حكمتهُ، التفت عن الجميع.. وفارق الحياة.. فحملهُ الناس في الحارة وداروا بهِ دورتين حول القلعة ومضوا بهِ إلى القبر مرتين وكأنهم يمضون بهِ إلى لعبة مسلِّية.

(بعض مما ورد في خطابات الأحنف وبياناتهِ اليومية):

- أيها الناس، الهواء منحة غالية، فلا تمعنوا فيها ولا تنتهكوها.. وأغلقوا أفواهكم دونها، وبالغوا في الإغلاق حتَّى تغشاكم الزرقة ويتم فيكم أمر الله. فتصبحون كائناتٍ فضائية، وهذا أمر فيه ما فيهِ من الخفَّة واللمعان.

أيها الناس، إنِّي أَرى كما يرى النائم، وأتوقف عن الكلام كما يفعل الصائم، غير أنني لا أستطيع أن أتوقَّف عنِ الطعام.. لأمرٍ فيهِ منفعةٌ جارية وهمٌّ لا أقدر على الإفصاح عنهُ..

وفي خطابٍ ثان قال الأحنف:

أيُّها الناس .. أصواتكم خضراء.. ورؤوسكم متيبسة وهاهي المصطبة قد أينعت بسبب انفعالاتكم وثقل أبدانكم فلا تدفعوني إلى ما لا أرضى ولا أطيق.. فأجتثُّ وجودكم الكثيف من مفرق الشعر حتى النَفَس الأخير. إنَّني وعندما أترككم على حالكم دون إبادة واجتثاث.. فلأني أشفق على الهواء أن يفسد بفساد أجسادكم..

أيها الناس.. أيها الناس.

- وكان الأحنف يمعن في ترديد عبارته الأخيرة.. « أيها الناس » حتى تفرغ الحارة من الناس.

أحياناً يفلت من الأحنف زمانهُ وبلاغتهُ، وتضطرب ألوانه وكلماته فيحار فيه الناس ويتحفزون للذهاب، غير

أنه يبقيهم في برهتهم ويهرع إلى الدكان ليحضر الفواتير وقوائم الشراء والمبيعات

ويبدأ بتعداد أسماء السلع والمواد وما أصابها من تقلبات بسبب اضطراب الضمائر والأسعار، وعدم ثبات الناس والأخلاق على حال..

- ومما ورد على لسان الأحنف في خطاب ثالث .. أنهُ قال:

- أيها الناس.. أيها الناس.. السوق مكان. والسلعة والآلة مقدمتان فيه على الكائن الذي هو سر أسرار الخلق وخطة الوجود، فلا تذهبوا إلى السوق حتى لا تصابوا .. واتركوني له، فأنا أدرى به وبما يضطرب فيهِ ويواليه من أقوالٍ وأعمال وأسعار.

أيها الناس، لقد جبلتُ على خبرةٍ وبحثٍ وصبرٍ وتعنت، أدور في السوق وأختار من المواد أحسنها وأرقها حاشية وأمتنها خيوطاً وأواصر لتكون بضاعتي هي الأفضل والأكثر احتضاناً لأجساد النساء في حارتنا والحارات المجاورة، فلا تتعسفوا مع النساء وأطلقوهنَّ للحارة والدكاكين.. وقرِّبوهنَّ من السلعة، ولا تعاملوهنَّ بمثلها.. فالمرأة روح رهيف، وأخطاءٌ قابلة للصفح والاغتفار.

(ولكي يكون الأحنف أقرب إلى قلوب مريديه ذكّرهم بفلسفته في البيع والشراء في أحد خطاباته) فقال:

- أيها الناس.. أيها الناس.. لقد أفسد الناس.. وأودى بهم، اعتماد الساسة وأقطاب الملل والنحل والأحـــزاب، وأرباب التجارة والسوق.. اعتمادا مطلقاً على الزبون.. فقالوا في ذلك قولتهم المأثورة (الزبون ملك .. وهو على حق دائماً) أما أنا ومن موضع المعارضـــة لطـــريقتهم ولأخلاقهم أقول: (البائع ملك.. لأنه المالك.. وهو على حق دائماً.. أما الزبون فهو الجحيم.. وخصوصاً إذا فكّر بالذهاب إلى دكان أخرى للشراء .

أيها الناس، البائع قائم.. والزبون عابر، والـــسلعة بينهما حد فاصل.. فلا تفرطوا في الحدود، حتى لا يطمع بكم أهل الحسبة والدكاكين، أما أنا فلقد كتبتُ فوقَ رأسي في الدكان جملةً تقول (بعد خروج البضاعة لا تُرد ولا تُبدَّل) وقد عملت بهذه الحكمة وأخلصتُ لهـــا.. حتـــى وصلتُ إلى ما وصلتُ إليهِ من حكمةٍ وتدبُّر، ثم قررتُ بسبب بُعد حارتنا عن البحرِ أن أضيفَ حكمةً أخرى فيها ماءٌ وموجٌ متلاطم، فكتبتُ على الجدار المقابل لطاولـــة البيع (البضاعة التي تخرج من الدكان تذهب إلى البحر) ورسمتُ تحت الحكمة مياهً زرقاء عميقة وأكفَّـــاً بعيـــدةً

تستغيث. وقد كنت بهذه الحكمة المبتكرة، أول من ربط بين اقتناء السلعة وضرورة تعلُّم السباحة. غير أن أحداً من الزبائن لم يحاول العودة لاستعادة ثمن السلعة أو تبديلها، رغم أنَّ أحداً منهم لم يجهد نفسهُ في قراءة الحكمتين المتقابلتين، والأسباب كانت واضحة، وهي جودة السلعة، وسمعتها الطيبة، وخيوطها الهفهافة الرهيفة التي تودي بالقلوب وبالجيوب.

وكانت للأحنف خطة ومبادرة، فهو صنفٌ نادر من الباعة الذين لا يكتفون ببيع السلعة، وإنما يلاحقونها ويلاحقون الزبونة التي اشترتها إلى أماكن كثيرة للاطمئنان على حسن حركتها ونواياها وتقلباتها بين يدي الزبونة وعلى جسدها، وكانت للأحنف طريقةٌ مبتكرةٌ في الاطمئنان والملاحقة، فاق فيها أقرانهُ من الباعة المستقرين والجوالين في هذا العصر والعصور المتباينة، ولأن أغلب ما يبيعهُ الأحنف يتعلَّق بالثياب النسائية الداخلية الفاضحة، لذلك أوقعتهُ رغبتهُ في متابعة السلعة والاطمئنان عليها في الحرج الشديد.

وكان الأمر يتطلب منهُ أن يقف خلف زجاج الدكان مثل المصلوب دونَ جريرةٍ أو ذنْب، وعيناهُ تشرِّقان وتغرِّبان وتمسحان الطريق من المنبع حتى المصب،

وعندما يلمح فتاةً من القادمات أو الذاهبات.. يترك الدكان بسرعةٍ ويلحق بها.. ليتأمَّل ليونتها واضـــطرابها فـــي الأرض، و عندما يصل إلى نقطة الاحتدام، يقتربُ من الفتاةِ معرِّفاً عن نفسه.. وبـــــأنـــــــَّـهُ برهان الأحنف صاحب دكانِ النوفوتيه والألبسة الداخلية الهفهافة، ثـــمَّ يذكِّرها بالأيام الخوالي، عندما دخلت دكَّانـــهُ واشـــترت أشياءَ ناعمة من بضاعتهِ، ثمَّ يؤكد للفتاة بأن أسئلتهُ منزّهة عن الغرض ولا تتعلَّقُ بزيـــادة الـــسعر، وأن القـــصد والغاية.. هي الاطمئنان على العلاقة الطيبة بين السلعة والزبونة، ثمَّ يملأ اللحظة بالتفاصيل، محاولاً أن يحـــدِّد الساعة واليوم ولون قطعة الثياب التي اشترتها المرأة من الدكان، وثمنها ولون غلافها، ولون الشريط الذي أحاط بها، ثم يقترب بحذر ليسأل: هل كانت قطعة الثياب ناعمة الملمس، وهل أمسكت النهدين بعـــسف أم احتـــضنتهما بلطف.. وهل تهدَّل النهدان بعد استعمال الحمالة، أم توثَّبا كطائرين أبيضين؟؟

وعندما تحاول الفتاة التملص يمسكها من يدها ويتابع الأسئلة حتى يتضاءل الهواء، ويتحيَّر الوجـــود وتقـــع الفتاة في الإغماء.

- كأنما للأحنف سحرٌ ووطأة. فعندما تنهض الفتاة مما غشيها وأوهن عمرها وشبابها بعد أن تفلح في انتزاع يدها من كف الأحنف وأصابعهِ. تهرع إلى البيت.. لتجد أنَّ محيَّاها أصبح أكثر بريقاً.. ولفتاتها أكثر إلفة ونقاء، والعالم أكثر حفاوة بها وانتباهاً، لذلك تحار في أمرهـــا، وتتابع التردد على الدكان للشراء والاستزادة وفي عينها خفرٌ وفي كلماتها ميلٌ واضطراب. نسوةٌ كثيرات، تحدثنَّ عن العطر الذي يبيعهُ الأحنف، وبأنَّهُ العطر الوحيد في الحارة، الذي يفلح في استعادة الأزواج وجرِّهم من أنوفهم إلى أحضان زوجاتهم.. وإبعادهم عن الخطيئة والنـــساء الغريبات.

وهكذا ارتبطت النسوة بمنتجاته وابتعدن عنهُ، لذلك صار من حقِّهِ وحقِّ حنجرتهِ ومعتقداتهِ أن يقـــول فـــي النسوة والناس، بأن السلعة صارت فيهم إماماً، وصاروا بها والهين ولها أتباع.

بعض النسوة الجريئات أنكرنَ في السلعة التي ابتعنها من دكان الأحنف الجودة والليونـــة والقـــصد الحـــسن، فاضطرب الأحنف منهن وجرَّهن من لدونة أطرافهن إلى الدكان وعندما صار معهن داخلها قال:

- لو لم تكن الحكمة التي على يمين الدكان تقول: ((بعد خروج البضاعة لا ترد ولا تبدل)) لكنــتُ رددت وبدَّلت.

ثمَّ التفت إلى الجهة المقابلة وأردف قائلاً:

- ولو لم تكن الحكمة التي على الشمال تقول: «كل بضاعةٍ تخرج من الدكان تذهبُ إلى البحر» لكنتُ أخذتكن إلى البحر لتتعلمن منهُ أسرار الزبد والموج، ولكنّي رجلٌ متمسّكٌ بأهداب الحكمة والتقى، ولو لم أكن كذلك لتمسكتُ بواحدة منكن، كما يتمسَّك العاصي بالفتنــة، والغريــق بالقشة، ولكنّني أخاف الله فيكن، وأخافُ في الناسِ الريبة والظنون، ولو لم أكن كذلك لكشفتُ بنفسي عن مكــان توضع القطعة واستغاثات الجلد الذي يجاورها وينتهد في ملكوتها.. ويصيبها بالتوثُّب والارتهان.

وكانت النسوة رغم الخفر والحذر، يتجــرأن علــى الأحنف ويمطرنه بالركلات والصفعات والفأل السيئ.

هكذا فعلت الحارة بالأحنف، وفعل بها، فصار بسبب ذلك يميل على إحدى ساقيهِ، وصارت الحارة تميل عنهُ وبدأت تخونهُ اللغة، وتذهب بياناتهُ اليوميــة مــذهباً لا يرضي الشامتين ولا الأتباع، وكان للأمرِ قصَّة.

(قصة لمياء الأخمش):

عندما تذكَّرت (لمياء الأخمش) الحكمتين العميقتين المعلَّقتين في صدر دكان الأحنف، دمعت عيناها من بلاغتهما وتأثيرهما وبدأت تتفصَّدُ منهما المياه والنظراتِ العميقة. وظلَّت عيناها على ذلك حتى تخضَّبت زرقتهما باللون الذي يفتك بالرجال.

- وكانت لمياء درَّة بيتها وأسرتها، وأكثر الفتيات بريقاً واندهاشاً. وكانت من الفتيات اللواتي شهدن الأحنف وهو يتعرَّضُ للفتيات في الظهيرة الحارقة، فاحتدت منهُ ونأت عنهُ، غير أنَّها أدركت بثاقبِ بريقها وعزلتها، أنَّ الزمان كلَّه لم يكن على حق.. فكيفَ للأحنف أن يكون.

لذلك ذهبت إلى والدها وأخبرتهُ عن جودة بضائع الأحنف وسوءِ طويته، وبأن الظهيرة الحارة تحجب العسس والرجالَ الغيورينِ فلا يتمكنون من رؤيته، وبأنَّها لو لم تكن على خفر وتعنتٍ لأفلح الأحنف بدأبهِ وسلاطةَ نواياه وأصابعه في هتكِ أسرارِ جسدها واستردادَ بضاعتهِ منها.. كأنَّما يعرفُ الأحَنف بأصابعهِ.. متى يتنهَّدُ النهدُ، ومتى تشعر الظهيرة الشائطة بالعزلةَ والبرد. ويُغشى على البرهة والخلق.

«وكأنَّما يا أبي.. كأنَّما..» وظلَّت لمياء الأخمش ترددها حتى تهاوت الحارة على الأرض.

أمَّا الأب فلم يكن في حالٍ مواتية للرد وقد لعب العطرُ الذي اشترتهُ الأم من دكّان الأحنفِ دوراً في ذلك.. صحيحٌ أنَّ الرجال وبعد أن استخدمت الزوجات عطر الأحنفِ المضاد.. عادوا إلى زوجاتهم منكسرين، ولم تعد تبرق فِي مخيلاتهم ذكريات عن النسوة الغريبات والأيَّام. وقد ذهبوا في ذلك مذاهبَ شتى.. فأصيب بعضهم بالحكة والحساسية المفرطة، وداهمتهم أمواج عاتية من التعقل وأصبحت جنوبهم زرقاء من فرط التقلب والأحلام الجائرة. لذلك لم يكن بعضهم يستطيع أن يلتفت إلى ابنتهِ وهي تتحدث عن الأحنف وما أصاب الحارة بسببه من تهافت وضلال.. وعندما لا يلتفت الآباء تلتفتُ الأمهات وتغص الدروب بالظلال والأحزان.

الأمهات صمتن دفعةً واحدة.. بعد أن شعرن بأن أية غضاضة تصيب الأحنف، ستؤثر على العطر الذي يوزعهُ في الحارة، ويشيع بواسطتهِ الفضيلة والوئام بين الرجال والنساء. غير أنَّ الأمهات انتبهن لما يصيبُ بناتهن وبالغن في الحذر من تحركاتهن، ورافقنهن في الذهاب والإياب، حتى أصيب الأحنف بالذبول والارتياب، وقد دفعهُ الحصار إلى طلب النجدات، فتوجَّه إلى أمه التي ليس كمثلها في البيوت والحارات.. وعندما اقترب من

أمومتها، صارحها بما ينغِّصهُ ويفتكُ فيه، ومن جملة ما قال:

ــــ البضاعة الباقية بدأت تستغيث، وباتت داخل الصناديق المغلقة مثل فتيات صغيرات واقعات في السبي. وصدئت مفاصل الباب، وتآكلت الحكمة المعلَّقة على الجدار الأول ولم يعد البحر متماوجاً في الحكمة الثانية. وتباعد الأحياء، ولم تعد فتاة واحدةٌ تُقبلُ على الدكان ودخلت الحارة في العزلة وسوء الظن، فماذا أفعل يا أم، وقد خلق الله الأمهات للحركة والمجاهدةِ ولمِ الشمل. فافتيني في اضطراب سعيي وغبش رؤياي، وأعيديني إلى الجادة.. وأعيدي بنات الحارة للسلعة والدكان.

فما كان من الأم الحنون سوى أن دمعت عيناها من الأمومة فنهضت بسنينها الغابرة ونظراتها الثاقبة ونهض عكازها معها، ثم وبلمحة رفعت العكاز وأهوت بهِ على الأحنف ورأسهُ وأطرافهُ وما يجاورهُ، وظلَّت على ذلك حتى أصبحت مضربَ المثل في الحارة. في الأمومة وصوابِ الرأي وصوابِ الضربات.

وعندما أتمَّت الأم فرائض الضرب، ألقت بالعكاز وصرخت بالحكمة الهائلة. « في الدكان تكرم المرأة ولا تهان » ثمَّ خرجت إلى الحديقة الصغيرة الملحقة بالدار.

والحديقة، عالمٌ آخر.. طافحٌ بالحياة والحركات يراهُ اللاهون أثراً بعد عين، ويراه العارفون.. عيناً لا تكلُّ من المشاهدة والزوغان، وقد سنحت الفرصة فحركـــت الأم أصابع كفها التي قبضت على العكاز، لتتنسى نظــرات ولدها الأحنف، واستغاثاته التي لا تبين، فالأم عندما تظهر القسوة، بدل المودة فإنما تفعل ذلك للحفاظ على لحمة العالم وإلفة القوانين، ثم ندت عن الأم التفاتهُ فرأت كما يرى النائم بين الشجيرات، خمسُ دجاجاتٍ وديك، وكان للديك عرْفٌ ومواقيت، وكانت للدجاجات أعرافٌ وحركات فاضحة.. وتآلفٌ ومواعيد، مثل كواكب عابثة لا تبارحُ مساراتها ولا تحيد.. ثمَّ وبلمحة تشعثت الدائرة وبدأ الديك القفز والعض وتعالت التباريح.

نسيت أن أقول بأنَّهُ كان للمصطبة جدار، وخلــف الجدار حديقة ودار، وفي الصباح عنــدما تــوارب الأم الباب، تخرج الدجاجات والديك، ويعتلي الديك المصطبة ليقول في الحارة كلاماً ما قالهُ الأحنف ولا الأخطل ولا صاحب القدم الثقيلة، وهكذا امتلأت المصطبة عن آخرها بالحركة والظلال. في الغروب يعتلي الأخطل المصطبة ليلقي بيانهُ اليومي على أسماع أهل الحارة وفي الفجر قبل جهجهة الضوء، يعتليها الديك ليعطي بصياحهِ للبرهــة

والخلق.. الإذن باليقظة والتثاؤب وفَرْكِ الأعين لاجتلاب النور والتعب المقيم.

فأي معدنين وكائنين، الأحنف يسلم رواد المصطبة للعتمة والليالي المتقبلة، والديك يسلِّمُ الناس للنهار الواسع الذي يملأ الدروب والقلوب دونَ أن يعبأ برجال الشرطة الحذرين، وفي الصباح تخرج الدجاجات الخمس إلى الديك لتداورهُ وتناورهُ وتمنحه الإلفة والصباح الجميل وهو منصرف للصياح والتباهي كأنَّ المصطبة وليس الدجاجات.. أحسن ما يعتليه.

- بعد أن كسرت الأم عكَّازها على ساق ولدها.. بدأت تتلامح على خطوات الأحنف سماتُ العَرَجِ الخفيف.

الليلة الثانية

الأحنف يطلب يد ابنة صاحب الشرطة، بينما يداه الاثنتان في القيد.

عندما استدارت الأم عنِ الديك ودخلت إلى ولدها الأحنف، وجدتهُ يعيد تجبير العكَّاز التي تكسَّرت على ظهرهِ وساقهِ فتأمَّلتهُ الأم بنظراتٍ طافحةٍ بالحكمة.. وقالت:

- ليس سوى الزواج من يكلؤك ويبدل في شأنك ولياليك .

فتفتَّحت أسارير الأحنف، كأنما كلمة الزواج هي الترياق الذي يعيد للروح والأطراف والمفارق ألونها وأسماءها.. وارتيابها وبهجتها. ولكنَّ الأحنف سُرعان ما اعترتهُ الرعدة.. فانتفض وقال:

- ومَنْ مِنَ البنات الجميلات ترضى أن تتزوَّج بي وقد صرت أميل على قدمي..

فقالت الأم: **الأرض مائلةٌ أيضاً، وهي لا تستقرُّ على حالٍ ومكانةٍ والميلُ هو الحبُّ والحب نعمةٌ ومكرمةٌ، فمن من البناتٍ ترغب؟..**

فصاح الأحنف اسماً لم يكن قد أعدَّ نفسهُ لهُ:

- لمياء الأخمش.. أريد لمياء الأخمش.

فبوغتت الأم بالاسم، وبوغتت الحديقة، وبوغتت الدجاجات السارحات.. بعد أن دوى الرعد.. واحتقن الباب من هول الضربات فاضطرب الأحنف، وركض رغم حَنَفِ رجلهِ الواضح إلى الجدار ليعتليهِ أو يذوب فيهِ، غيرَ أنَّ الأَم بصوتها الواضح ونظراتها الثاقبة انتهرتهُ وطلبت منهُ أن لا يغامر بالجدار وأن يهرع إلى الجهةِ الأخرى ليفتح الباب، فامتثل الابن ومضى إلى الجهة الدواية وقد

تبدَّى فيهِ العرج أوضح ما يكون، وعندما تمكَّن من الباب وفتحه، انهمر عليه العسس المدججون وأوقعوه أرضـــاً، وعندما عاينت الأم.. سقوط ولدها البليغ، صرخت من قحف رأسها صوتاً أيقظ الحجارة والنـــاس، فتحرَّكـــت الأجساد ونهضت وكأنَّها نهضت من زمـــانٍ ســـحيق. وانهمك الرجال المدججون بتنفيض الغبار عن ثيـــابهم وظلُّوا على ذلك حتى تعذرت الرؤيا.. وقد حاول رئيس الدورية الاستفادة من سحب الغبار فانقضَّ على الأحنف حتى لا تلمحهُ الأم ومضى بهِ.. وفي الطريق وعندما أفلح الجميع في الخروج من دوامة الغبار، التفـــت رئـــيس الدورية إلى الأحنف وأمر رجالهُ بوضع القيد في يديهِ، وعندما لمح على محيَّاه استغراباً، اقترب منهُ وأوضح لهُ بأسلوب رقيق بأنهم دورية المداهمة التابعـــة لـــصاحب الشرطة، وأنهم مكلَّفون بالقبض عليه لأسباب لا يعرفها إلا هو، وبأن القيد وبعض الركلات واللكمات ما هي إلا مظاهر زائلة..

ثم ربَّت على ظهر الأحنف وكتفيه حتى اطمأنَّ وكاد من هول الاطمئنان أن يقع على الأرض وينام.

أمَّا الأم الواقفة في باحة الدار، وقد أحاطت بها الريبة والغبار، فلم تكن على قدرٍ كافٍ من الاطمئنان، فعندما

تلاشت سحب الغبار نظرت حواليها فلم تلمح ولدها الأحنف أمامها ولا حواليها فهرعت إلى الباب فلم تجد على المصطبة أحداً سوى الديك فشعرت بالوحدة والخوف، وانطلقت مثل أمٍّ مفجوعةٍ للبحث عن بقية الدجاجات.

بعد انتظارٍ طويل.. دخل الأحنف غرفة صاحب الشرطة، صفوانَ الأخمش.. وبعد تريُّث وتحيُّر.. نهض الأخمش إلى الأحنف، فتأمَّل قيوده والتواء كاحله ونظراته وقال:

- أنت هو الأحنف..؟؟

فقال الأحنف: قبل دخولي إلى هنا كنتُ الأحنف، ولا أعرف إذا بقيتُ في عداد الأحياء.. ماذا سأكون.

فقال الأخمش مبتسماً: أنت في القيد فاطمأن، فنحن لا نضع قيداً على معاصم الأموات..

- فما هو الداعي لإحضاري إليكم على هذه الصورة؟..

- لسانك ..

- ولكن لساني لم يخض طوال البيانات التي ألقيتها على المصطبة.. في مكانتكم وسيرتكم وهيبة الجهاز التابع لكم .

- لقد تجرَّأت وخضت بهِ في سيرة ابنتي الوحيدة لمياء .

فضربِ الأحنف جبهتهُ بكفهِ كمن يتذكر شيئاً غاب عنهُ طويلاً وقد اضطر بسبب القَيد الذي يكبِّل معصميه أن يرفع كفيه معاً، ويضرب جبهتهُ بأحدهما.. وبقي الكفُّ الآخر، يترنَّح في الفراغ

- لم أكن أعلم أنَّ لمياء الأخمش ابنتكم!!

- الآن وقد علمت.. كيف تجرّأت ونطقت اسم ابنتي دونَ أن تقع مغشياً عليك؟؟

- كيف وصلكم الأمر؟ وقد كان اسمها آخر شيء ذكرته، وعندما ذكرتهُ وقعت الزلزلة وأودى بي الباب.

فقال صاحب الشرطة متباهياً:

- بسبب ثورة الاتصالات أصبح الفارق بين أقصى الأرض وأقصاها ومضة واحدة.. لقد تمكَّنت أجهزتنا أن تعيد للهواءِ هيبته. ومعناه، وأصبح التخاطر هو السِمةُ التي تميُّز صاحبَ الشرطة عمن سواه من الناس، وهكذا أحسستُ بصوتكَ يرنُّ في أذني.. قَبلَ أن يصلَ إلى عصا أمك.. فلماذا ذكرتَ اسم ابنتي في هدأتي .. ودفعتني للريبةِ والاضطراب .

- ذكرتهُ لقصدٍ محدَّد، هو الزواج .

- فهل أعجبك في ابنتي بيتها واسمها، أم لونهـــا وخصالها؟..

- أعجبني في ابنتكم اعتدالها وحِدَّة لونها وقـــوة نظراتها، وغمرني بالعرفان .. أنّ ابنتكم لـــم تـــشارك بالصفع يوم انهالت النسوة عليّ.. ألا يكفيك بعد الذِّي قلته في ابنتكم .. أن تقع على يدي لتطلب المغفرة مني، فالمعروف في الحارة والناس، أنَّ بنات صاحب الشرطة يقعن في العنوسة والفأل السيئ، وتحيط بهن خـــشية الناس ولا تحيط بهن مودتهم، لذلك تتهدل أرواحهـــن وحلماتهن رغم يفاعتهن ووحشة لياليهن، فاذهب إلى بيتك وابنتك وانشر البهجة والأخبار الطيبة فيه، وأعدَّ العُدَّة لاستقبال أمّي لتخطبها لي .

عندما قلَّب صاحب الشرطة كلام الأحنف وجـــسده وساقيه على كرسي الاعتراف، وجَدَهُ معقولاً في كلِّ ما اجترحهُ وأدلى به من الكلام.. لذلك.. طلـــب صـــاحب الشرطة من بعض رجاله القيام بتضميد الأحنفِ وتجميله وإزالة كدماتهِ وزرقةِ لونهِ وإرسالهِ إلى أمّـــهِ معـــزَّزاً مكرَّماً، وقد حُمل على الراحات بسببِ عدم قدرتهِ على المشي أو الزحف على الطرقات.. وهذا قَـــدَرُ الرجـــالِ المتيّمين الآن وغداً وإلى آخرِ الزمان.

عندما اطمأنّ إلى وصولهِ حيَّاً إلى مصطبته وذراعي أمه، هرعَ صاحبُ الشرطة من وقتهِ وساعتهِ إلى بيتهِ وابنتهِ وسألها في الأحنفِ رأياً، فاضطربت ولم تحر جواباً، وتورّدت أعطافها، وأغضّت على حياءٍ وخفر واضحين، ولكي يُخرجَ صاحبُ الشرطة ابنته من حيرتها بادر إلى توضيحِ موقفهِ من الأحنف وسيرته، فقال:

- الأحنف كائنٌ يميلُ على أحدِ أطرافهِ، غيرَ أنَّهُ معتدلُ الصوت والمزاج، ولا يميل إلى جهةٍ في السياسة حتى ولو كانت على حقّ، وتلك وأيمُ الله مزيّةٌ تعجبُ الحكَّام والظلام والرجال المتنفذين، وأنتِ ابنتي وأقرب إلى روحي ورتبتي، فماذا تقولين فيهِ وقد تقدَّم إليّ وطلب يدكِ للزواج؟..

فارتفعت لمياء الأخمش برأسها إلى كلام والدها وقالت:

- ومتى طلب يدي؟؟

- عندما كانت يداهُ في القيد، وكان جسدهُ على قيد الحياة.

- ليس لابنةٍ مثلي أن توافق على الزواج من رجلٍ مثله، رجل يميلُ إلى الهوى.. ولا يميل إلى الحق. القيد يوهن يدَ الرجلِ يا أبي فيطلب يد الأنثى ليوهنها.

- ما دمتَ على هذا الرأي، فلماذا لم تحاولي صفعهُ يوم تقاطرتِ النسوة بأكفِّهن عليهِ في الدكَّان؟

- كنتُ يومها أميلُ لهُ وكان الأحنف قادراً على أن يسرق مني أحد نَهْدَيَّ، لكنَّهُ لم يفعل، لذلك أكبرتهُ وحنقتُ عليه، وها أنتَ والقيد في يديه تقولُ لي بأنَّهُ لا يميل إلى جهةٍ ولو كانت على حق، فكيف يستطيع أن يحتويني ويميلُ إليّ، إنّ في قَدَرِ صاحب الشرطة أن تظلّ ابنتهُ الوحيدة وحيدة رغم ما يضطرب فيها من نهدين وعينين، فعندما يفلحُ صاحبُ الشرطة في تحويل الحياة إلى رهينة، كيف بوسعهِ أن يمنع ابنتهُ الوحيدة من أن لا تكون رهينة، ثمّ وقعت الابنة إلى جوار والدها وتفصّد منها حزنٌ كثير.

وعندما وصلَ الأحنفُ إلى باب بيتهِ.. استند على الجدار حتى لا تطيح به قدمهُ المتورمة، وعندما أفلح في الوصول إلى أمهِ.. أخبرها أنّ عكّازها غرست في جسدهِ الزرقة والحكمة والخطوات المتعرّجة، ثم طلب منها أن تذهب من وقتها وساعتها إلى بيت صاحب الشرطة لتطلب يد ابنته ليتزّوجها، فانتهرتهُ أمهُ وقالت لهُ:

- بعد الذي فعلهُ بك.. تطلبُ يدَ ابنتهِ ؟؟..

وأشارت إلى آثار الحديد على يديه.. فقال الأحنفُ لأمه:

- أطلبُ يدَ ابنتهِ الواحدة لأحرّرَ منهُ يدي الاثنتين.

ففهمت الأم إشارة ولدها، ونهضت من لحظتها إلى بيت صاحبِ الشرطة، فلم تجدهُ في البيت ووجدت ابنتهُ مشعّــثة وواهنة، فاقتربت منها وأزاحت خصلاتها عن محيّاها وقالت:

- يا سبحان الله، من حقّ ولدي أن يميل إليك، فهل تميلين؟..

فنهضت ابنةُ صاحب الشرطة، ومشت في طــول المكــان وعرضه فلم تلمح فيها الأم ميلاً ولا عوجاً، وتبدَّت على خفّةٍ ورهافةٍ وكأنّها تسبح في الهواء، فتأمّلتها أم الأحنف وقالت لها:

- الخفر في البنت أحسن من الميلِ والهيامْ، وعندما يميل الابن، على الفتاة أن تتريّث، لقد أحسنَ الله خلقكِ وأكمل بريقكِ وفتنتكِ كأنك لم تكوني ليومٍ أو برهةٍ ابنةَ صاحب الشرطة، فأنتَ على خفر وتبتل وكأنّك أحدً المتّهمين.

فتنهّدت ابنةُ صاحبِ الشرطة حتى كادت أم الأحنف أن تغيب، وعندما عادتَ الأم إلى رشدها وبقايا أمومتها، التفتت إلى الفتاة وأمسكت كفّها ووضعتهُ في حجرهــا وعندما أحسّت ببياضهِ و لدونته قالت لها :

ـــــ يدكِ هذه لم تعد لكِ.

فاضطربت لمياء الأخمش وجرّت يدها وصاحت:

ــــ كيف يمكن ليدي أن لا تكون لي؟..

فقالت الأم متبسِّمة: **لأن ابني الأحنف قد طلبَ يدك، وعندما يطلبُ شابٌ في مقام ولدي الأحنف.. يد فتـــاَة تكون يدها لهُ، ولا تكون لصاحبتها.**

فقالت الفتاة: **هذا كثير، وأنا لا أفهم كيف يمكن للفتاة أن تكون بيد واحدة؟..**

فقـــالت الأم : **ليس هذا على صـــاحب الـــشرطة بكثير.**

فقالت الفتاة: لم أفهم!!

فأجابت الأم: الشرطة تطلبُ من الرجل يديه الاثنتين لتضعهما في القيد، والرجل يطلبُ من المرأة يداً واحدةً. فأيهما أكثر هياماً وحبّاً، وأيهما أكثرُ قسوةً وظُلُماً، المكثر أم المُقل، الشرطة أم الرجل؟؟

فقالت لمياء: المُكثر أكثر هياماً، وبذلك ليس بوسعِ ولدك أن يكون في سلك المحبّين، فانطلقي إليه وأخبريه رفضي.. فاليدانِ المكبّلتان لا تُخلِصان الوِدّ ليدٍ واحـــدة، فاذهبي لولدكِ واخلصي له النصحَ، فهو جديرٌ بالأمهات أكثر من جدارته بالحبيبات.

عندما خرجتِ الأمُ غاضبةً، شيّعتها لمياء الأخمش بدموعٍ لا ترى وصدر لا يهون، وعندما رجعت إلى مكانتها تفقّدت حمّالة صدرها فوجدتها قد اضطربت وشحبَ لونُها.. وانهارت خيوطها، فخلعتها ووضعتها في مكانٍ بعيد.

- حين وصلت الأم إلى ولدها، أخبرتهُ بما جرى وصار، وطلبت منهُ أن لا يعود إلى التفكير بالفتاة، فهي على حكمة وتبصّر وجمال فريد، وعندما تكون الزوجة كذلك، يكون للزوج مكانةٌ ضئيلةٌ فابحث عن صاحبة الجمال البسيط.. لتكون من الناجين، وعندما حانت من الأم التفاتة، لمحت خمس دجاجات قربها وقربهن ديك، فشعرت الأم بالهزة، كأنّ ومضة من الإلهام المريب أصابتها، فالتفتت إلى ولدها وقالت بتصميم:

- سأخطبُ لك من عِليةِ القوم.. ما تشاء وترضى من البنات الجميلات لتذبلَ ابنة صاحب الشرطة ويذبل ما حولها من رجال غاضبين.

فقال الأحنف لأمهِ بارتيابٍ شديد:

- لقد زيّنتِ لي ابنةَ الأخمش.. فكبرت في عيني وبين ذراعي.. فهاتي سبباً واحداً يدفعني لنسيانها واستبدالها بعددٍ غير محدود من الفتيات.

فقالت لهُ أمّه:

- التفت إلى ما حولك وتبصّر فيه.

وعندما التفت الأحنف لمحَ الدجاجات.. وعرف عدتها وألوانها.. شعر بأنّ أمهُ تريد له أن يصبحَ ديكاً، وعندما فكَّر بالأمر اضطرمت مواجده فذهب إلى المصطبة ومطَّ عنقهُ وحرك لواعجه وبدأ بالصياح كما يفعل الديك.

* * *

الليلة الثالثة

عندما حاولت أم الأحنف أن تخطبَ لهُ ابنة قاضي القضاة ثم إن الأحنف نظر إلى أمّه وقال لها:

- اذهبي إلى ما نذرت نفسك له، واخطبي لي وستجديني من الصابرين إن شاء الله.

فاضطرم وجهُ الأم، وقالت لابنها:

- وهل تفلح الفتيات الكثيرات في دفعك لنسيان ابنة الأخمش وهي واحدة.

فقال الأحنف:

- في قانون السوق، يأكلُ العدد الأكبر ما دونهُ من الأعداد لذلك تفلح الكثرة وتتردى القلّة وتؤول إلى فساد.

فردت الأم بغضب قائلة:

ولكنكَ ابنٌ لي ولستَ ابناً للسوق، وأنا عندما أرضى لابني عدداً من الفتيات، فلستُ أرضى لزوجي سوى امرأة واحدة فهل أنت مع أبيك، أم معي؟؟..

فقال الأحنف:

رحم الله أبي، فلو لم يكن على صبرٍ ضئيل وتعفف قليل لارتضى الحياة معك ولما اختارَ المماتَ في أحضان سواك من الجميلات، ولكنهُ نوعٌ خاصٌ مــن الرجــال، ولست على سعيه ولا في مثل شأوه، فاذهبي لما ارتضتهُ أمومتك، واخطبي لي ما يشفي غليلك، أمَّا أبي فقد مضى لما يرتضيه وينفعه ومات.

فاستبشرت الأم في ما قالهُ ولدها خيراً، وبأنّهُ منذورٌ لها ولما ترتضيه فيه، وليس في دأبهِ وسعيه أن يكــون كأبيه، ثم وفي غفلةٍ منهُ بادرتهُ أمه بالكلام فقالت لهُ:

ــــ فما رأيك أن أذهب إلى قاضي القضاة لأخطب لك ابنته؟..

فسألها الأحنف مضطرباً:

ولماذا ابنة قاضي القضاة؟..

فأجابت الأم:

لأغيظ بها ابنة صاحب الشرطة لمياء.

فارتجّ الأحنف من الجواب، وكاد أن يقع مغشياً عليه وعندما لم يفعل، التفت إلى أمه وسألها عن الأســباب.. وهل بوسع قاضي القضاة أن يكون على بصيرة وتفتّح ليغض البصر عن عرجهِ واضطراب خطواتِهِ وسيرته.

فقالت الأم:

ليس من سبب ليرفض أو يقبل، غير أن ابنتـــه إذا ترددت على دكانكً، وكان لك معها تبادل وبيع فلا بدّ وأنها ستحمل من بضاعتك ورائحتك ما يزين لها الموافقة، فترضى بك وتزين لوالدها الرضا والقبول .

فحاول الأحنف أن يتذكر إن كان في برهة قد تعرض لابنة قاضي القضاة وأصاب منها مقتلاً في بيعٍ أو شراء أو كلام.. ولكن ذاكرته لم تسعفه، وعنـــدما لا تُــسعف الذاكرة، يكون الأمر في حالة وسطى بين الجنة والنار، ولأن قاضي القضاة اسم على مكانةٍ عالية ومصطبةٍ هائلة وأحكامٍ قاضية تتربص بالموت والحياة، فلا بدّ وأن تكون ابنتهُ شديدة التمسّك بالزواج، كما يتمسّك قاضي الجور، بعناصر الاتهام.. ولأن للجور في الحارة مكانة وأيـــام، فهل ترضين يا أم أن أعيش بقية عمري خلف القضبان.

فقالت الأم: **لا..**

فقال الأحنف: **فحاولي أن تغضّي الطرف عن هـــذا النوع من الفتيات.**

فقالت الأم: ليس كالزوجة اللئيمة من يحفظ الحقوق ويتجاهل الزوج والواجبات، وهي حين تفعـــل.. فـــلأن أولادها خيرٌ لها من العالم ومن تعقّل الأزواج، ولأننـــي أتوسّم فيك يا ولدي الخير والعمر القصير، لذلك أرتضي

لك هذا النوع من الزوجات، فاقبل ولا تتردد، حتى لا تكون من الأبناء العصاة، وخيرٌ لكَ أن تعرف.. بأنّ العدل الذي هو أساس المُلك، لم يعد شيئاً في عرف الملوك ولا في أعراف القضاة والجناة في هذا الزمان، لذلك عليك بالصمت والموافقة على الزواج من ابنة قاضي القضاة رغم ما تمتلكهُ من شعر زائد حول الفم والعنق واللفتات، فالفتاة القبيحة يا ولدي أَميَلُ للعفّة وعدم الخيانة وأكثرُ استعداداً للرضا بالزوج حتى ولو كان من فصيلة الديناصورات.

فتأمّل الأحنف كلام أمهِ واضطراب خطواته، وقرّر أن يجاهرها بشروطهِ.. قبلَ أن تذهب لتخطب له ابنةَ قاضي القضاة فقال:

- لقد أخذتك حكمتكِ وأمومتكِ بعيداً.. ورغم ذلك إني موافقكِ فيما طلبتِ ، ولا أتشدّد في اضطراب الشعر وانتشارَه في مواضيع كثيرة على وجه الفتاة، فأنا أتنازل في أي شيءٍ سوى في النهود وحجمها واستدارتها وتوثّبها ولمعانها، واحتلام حلماتها، وبريق حليبها، وقد خبرتُ نهوداً كثيرات، وفتياتٍ كثيرات، غير أنّني لا أذكر واحدة منهن تدعى ابنة قاضي القضاة، فاذهبي إلى النهد وتلمسي طبائعه واستدارته قبل أن تقولي رأياً في

صاحبتهِ، وإذا لم تقدري على ذلك فلا توهنيني في دنياي وتدفعينيَ لما لا أحبُّ وأرضى من النساء .

عندما تأمّلت الأم كلامَ ولدها وجدتهُ الصواب فقالت:

- خيراً، فاصبر عليّ .

فقال لها:

- لا أستطيعُ معكِ صبراً.

فانتهرتهُ الأم وقالت:

- لا تبالغ ..

ثمّ نهضت من مكانها ومضت إلى الطرقات التـــي توصلها إلى قاضي القضاة.

وقاضي القضاة في الحارة على مكانةٍ وسطى تقع بينَ صاحبِ الإفتاء وصاحبِ الشرطة، ولأنَ القضاةَ رغم التقدم الهائل وثورة الاتصالات، قد ترجّلــوا للأمــراء والوزراء وأصبحوا من جملةِ الحاشـــية، فلــذلك كـــان الوصولُ إلى قاضي القضاةِ صعباً وعلى قدرٍ كبيرٍ منَ المجازفة. وكانت أقصر الدروبِ التي توصل الأحنــف إليه، هي الدروبُ التي توقعهُ بـــين بـــراثن الـــشرطة. والوقوع بين البراثن يحتاجُ لارتكاب جنحةٍ أو مخالفـــة، ولأن الداخل إلى مخفر الشرطةِ مفقود والخارجُ منه ناجٍ

مولود، فقد شعر الأحنف بالريبة والتورم وبدأت ترتعش من الهول قَدَمُهُ الثانية ولكي يمنع جسدهُ من السقوط، فكّر أن يرتكبَ ألطف الذنوب وأهونها عند الأئمة والناس.

لذلك حدَّثتهُ نفسهُ أن يصفع واحداً من المارّة، ليس بقصد أن يرديه وإنما ليخرجهُ من ذهولهِ حتى يتعرّف وجهتهُ ويصل إلى بيتهِ ووسادتهِ لينام.

وقرّر أن يختار من المارّة أكثرهم تعفّفاً حتى لا يوقع جسده في التهلكة.. وعندما صدرت منهُ التفاتة وجد الخلق كلهم على استكانة ورضا، وقد تفاقمت فيهم الحكمة والمسامحة، ونسوا كيف يكون الغضب.. وقد استباحتهم الأكف والأيّام، وتقافز إلى سدتهم اللئام، ولذلك لم يبذل الأحنف جهداً كبيراً في الاختيار وإنّما هرع إلى أول المارّين، وصفعهُ صفعة رهيفة لا تخدش وجه الماء، ولكن الرجل المصفوع ابتسم ابتسامة عميقة قبل أن تفيض روحه ويقع على الأرض لا حركة ولا نأمة، كأنما الرجل ينتظر الصفعة، كأنّما أفلحت الصفعة بتخليص الرجل المصفوع من عبءٍ ثقيل اسمهُ الحياة.

كأنّ الخليقة كلّها يا مولاي، كانت معلقة الأنظار بكف الأحنف وحركتهِ، كأنّ الهواء كلّه مستجيب لمفاقمة

الصوت وتكبيره لتبدو الصفعة وكأنّها القضاء المباغت الذي لا راد له، فعندما تعانقت أصابع كفّ الأحنف مع شعرات وجه الرجل العابر وخدّه الذاهل عنـــهُ حـــدثت الزلزلة وتقاطر رجال الشرطة وعصيهم من كل برهة وصوب.

ثم نقل صاحب الجسد المسجّى إلى المشرحة، وتفرّغ بعضهم لتفكيك وحدته وملكوته، وتفرّغ بعضهم الآخــر ليطقّسوا له ويغسلوه ويكفّنوه وينقلوه إلى أعلى عليـين، مُشيَّعاً بفرح أمه وغبطة بناته، أما الباقون فقد تفرّغ قسمٌ منهم لحمل الأحنف المتهم حيناً وشحطهِ حيناً آخر ليتحقق التوازن والعدل الذي يحرص عليــهِ القَــضاة ورجــال الشرطة في كلّ أمرٍ وشأن.

عندما تمّ إيصال الأحنف المتهم بالقتل العمد إلـــى مخفر الشرطة يا مولاي..!! حصل هرج ومرج، كــأنّ أقدام رجال الشرطة وأكفّهم لم تستقبل موقوفاً منذ زمنٍ بعيد، لذلك أُصيبت أصابعهم بالحكّة والغلظة والهياج.. وعندما لمح أصحابها جسد الأحنف، تريّثوا تــارة ثــم تحفّزوا حتى سال لعابهم وانهالوا على جسده.. كما ينهال الضبعٍ على الفريسة بعد جوعٍ واحتقان. فأشبعوا جسده تلويعاً وتقريعاً وركلاً في الصميم وظلّوا على ذلك حتى

تمزّقت أحذيتهم السميكة.. واسودّت أطراف الأحنف وجهاته من وطأة الضرب وكثافة الأصبغة. أما الجهات التي أصابتها اللعنات، فقد تورّدت أول الأمر ثمّ احتقنت وتفاقمت ثمّ تورّمت وغشيها الغموض والأنين.. وأصبحت الزرقة الصريحة تجاور السواد الصريح.

عندما هدأت جهات الأحنف وأطرافه ولم تعد فيه نأمة أو قدرة على الصراخ ارتفع من بين رجالِ الشرطة صوتٌ واثق حكيم وقال:

- القاتل يقتل ولو بعد حين، فلنعد إليه ولنبطل بأصابعنا لونَ عينيه فالسن بالسن والعين بالعين، ومن رفع القاتل إلى مكانه ضحيته ما ظلم ولا لحقهُ عتبٌ أو حيف .

وكانت حجّة صاحب الصوت دامغة ومؤثرة.. لذلك اندفع بقية الرجال إلى الأحنف وفي قصدهم وخطتهم إنزال القصاص العادل فيه، ولكن صوتاً من آخر الممر أوقفهم وشتت سعيهم، وكان صاحب الصوت هذه المرة هو صاحب الشرطة ذاته، وما يلتمع على أكتافه، وما يرافق خطواته من صليل، وعندما سمع الأفراد صراخ سيّدهم.. أصيبوا بالرعدة، وتحجّرت أطرافهم وأصبح صمتهم يضارع صراخ التماثيل.. عند ذلك اقترب صاحب الشرطة

من الأحنف وجثـــتهِ ومهرجان الألوان الذي يتبدّى منهُ ويتردّى فيهِ، وحاول أن يتأمّله ليتعرّف طبائعهُ وأوصافهُ.. وعندما عجز.. طلب من رجالهِ حملهُ إلى قاضي القضاة ليقول رأياً فيه، وقد استدعى ذلك أن يتأمّل صاحب الشرطة سجل المتهم وصفاته، والتُهمِ المنسوبة إليهِ وعندما وصلَ إلى اسمهِ أصيب بالدّهشة والبهاق وعَجزَ عن إزدراد ريقه، فصاحَ برجالِ الشرطة المتخشّبين، أن احملوهُ ولا تتهاونوا فيه، وامنعوا أخبارهُ عن ابنتي الوحيدة حتى لا تموت منَ الحزن عليه.

وهكذا انقضّ الرجالُ على الأحنف وحملوهُ وحـــينَ أوصلوهُ إلى قاووش القصر العدلي.. ألقوا به في الجب. وعندما عبرَ بعض السيارة تأملوهُ ولم يدفعوا أي ثمنٍ فيهِ.

بعد أن تماثل الأحنف لبعض اليقظة بـــدأ بـــالتلوي والأنين.. وقد أعانه البئر على تكبير صرخاته وإيصالها للغيوم.. وقد وصل أنينهُ إلى مسامع قاضي القضاة.. ففزّ من نومهِ فزعاً وصاح. من يجرؤ على إقلاق هجعتـــي وأحلامي في هذا الليل البهيم، فلم يجبه احد لما طلـــب، لأسباب سنفصّل فيها بعد حين، ومن بعضها أن صوت شخير زوجته التي تجاوره، كان أعلى شأناً ومكانة من

صوت الحق الذي يعتلج في صدره، لذلك ارتدّ قاضي القضاة إلى الغضب و اللعنات، وعندما خامرته فكرة أن يحمل وسادته ليخمد بها جسد زوجته، اغتبط كثيراً، غير أنّه ما لبث أن أبعد الفكرة عن وسادته حتى لا يكون في عداد القتلة والمجرمين. ثم حمل الوسادة ومضى بها إلى الصالة.. وبدأ يتأمّل القنوات الفضائية مثل كائنٍ لا تربطه بالأرض محاكم ولا قوانين. وعندما وصل إلى قناة تنهكه وتؤرق عينيه، أمعن فيها بَحْلَقَـةً و هياماً حتى غلبهُ التثاؤب فسقط وحيداً، وقد أعشت عينيه الصور الفاضحة وصرخات المتهمين.

في الصباح التالي، الصباح الذي لا يجاوره ديك نزلت إلى الأحنف فصيلة من الحرس الغلاظ المتفهمين وجرته من قيوده وكلاليبه إلى المكان الذي يتربع عليه قاضي القضاة.

ثم تقدّم قائد الفصيل.. فاتهم الأحنف بالقتل العمد وبأنّ هذا القتل حصل أمام الملأ في نقطة التقاطع بين شارع ورصيف حين التمعت الشارة الحمراء والغضب الدفين، ولأن الأحنف لم يكن قادراً على الهواء والوقوف، فقد اقترح المدعي العام على القاضي التأجيل وقد راقت الفكرة للقاضي وكاد أن يصدر فيها أمراً، غير أنّ

الصوت الذي داهمهُ في النوم.. عاد إليه وأثّـر فيـه، فارتجّت جهاته وعناصره وقال:

- التأجيل على ذمة التحقيق لن يمكّن المتهم من البقاء على ذمة الحياة، وبذلك يحقق الموت أهداف القاتل ومراميه ويدفعهُ للإفلات من قبضتنا وأحكامنا، لذلك عجّلوا بإحضار الأسباب الموجبة لمحاكمته لننـزل قضاء الله فيه.

هذا ما كان يا مولاي من أمر الأحنـف وقاضـي القضاة، أمّا ما كان مع جثّة الرجل القتيل الممدة علـى المشرحة فلقد أفلحت المشارط والمباضع بتحويلها إلـى وردةٍ حمراء وبدأ الذباب الأزرق يئزُّ حـول الطبيـب الشرعي وكأنّهُ في عيد.

بعد أن أتمّ الطبيب فروض الكشف والتحليل ومعرفة أسباب الموت وضروراته، ذهب إلى مكتبـهِ وسـطّر تقريره دون أن ينتبه إلى آثار الدم التي صبغت أطراف الورقة وعناصر التقرير، ثمّ طوى التقرير وأرسله إلى قاضي القضاة وعاد إلى الجثّة ليطوي أيّامها وجراحهـا ويعلن ذبولها إلى أبدِ الآبدين.

وعندما وصل التقرير إلى قاعةِ المحكمة كان الجميع في الانتظار وكان الأحنف في التهافت والـدوار وبعـد

تلاوة التقرير من قاضي القضاة، ران على الجميع صمت وقد تعلّقت الأرواح والأهداب بشفتي قاضي القضاة، وكان قاضي القضاة واقعاً في الحيرة واللجلجة، مما دفعهُ لقراءة تقرير الطبيب الشرعي عدة مرات ليتمكن منه ومن دلالته ومعناه، وعندما تسنّى له الأمر رفع عينيه المخضلتين بالدمع إلى الحشد وبسمل وقال:

- أمّا بعد، فليس بعد الله، وتقارير الأطبّاء الشرعيين من سند ولا يقين، وبما أن التقرير مؤسسٌ على النظائر والمشارط والمقاييس، ولأن العلم أحسن عند أهل هذا الزمان من الحكمة والعدل، لذلك لا يسعني إلا أن أقول ببراءة هذا الرجل.

وأشار إلى الأحنف.

فصدرت عن الحضور شهقةٌ موحدة، وكان في مقدمة الشاهقين ممثل النيابة العامة وممثل جمعيات حقوق الإنسان، وممثل أقرباء الفقيد والطامعين بإرثه و المشفقين على الأحنف وما سيلقاه من مصير، ورغبة من قاضي القضاة في إيقاف سيول الشهقات عند حدّها، فقد تأمل الحشد وطلب منهم سدّ الأفواه والذرائع وفتح الآذان ليكون منهم الفهم، ومنه الشرحُ والتأويل.. وعندما تمّ له الأمر تنفّس الصعداء وتذكّر العداوة التي تربطه بمعجون

الأسنان، فهرب الذباب من حولهِ واستراح علـــى مـــن يجاوره ويواليه، ثمّ قال قاضي القَضاة:

- أيها الناس، هذا الرجل .. (وأشار إلى الأحنف) لم يقم بصفع رجلٍ حي وإنما بصفع رجلٍ ميت ..

فازداد اضطراب الناس وتعالى طنين ذبابهم، فتابع قاضي القضاة الكلام في محاولةٍ منهُ لإسكاتهم.. فقال:

- قد يتساءل منكم المتسائل، ويتحيّر الصامت ويقول القائل.. كيف يمكن للرجل أن يصفع جثّة، والتساؤل في هذا المجال حق، فالضحية توفيت قبل أن يقوم المتهم بصفعها ببرهة كلمح البرق، وبذلك ليـــست الصفعة من سببت الموت، لأن الموت سابق علـــى الصفعة ومقدم على سواه، وبذلك يصبح المـــذنب بريئاً، والموت قريباً ومتوالياً حتى لنكاد أن نكونـــه دون أن نراه.

وبعد صمت.. ارتفع صوت ممثل النيابة العامة فقال:

- وما دام الأمر كذلك فهل من حق المرء مهما كانت أسبابه وضروراته .. أن يصفع جثـــــّة..؟؟

فقال قاضي القضاة:

- هذا أمر لا أستطيع أن أُفتي فيه، فالقانون المـــدوّن والمحكي والمتوارث يتناول الأحياء وما يشتجر بينهم من أفعال وتعديات أما الأموات فليس في دأبهـــم أن يقلقوا هجعتهم بأسباب تؤثر في الأحياء، وقد يكون في الصفعة دوافع نبيلة، فربما رغب هذا المتهم بصفع الجثّة لكي يردها إلى الحياة، فلقد تعارف المحدثون من الأطبّاء على ضرورة تعرُّض صاحب الذبحة أو الجلطة والإغماء لصاعقتين كهربائيتين تعيد الميت إلى جادة الصواب وتدخله في زمرة الأحياء والعياذ بالله، وعندما يكون الأمر كذلك، تعلو منزلة المـــتهم وتتنزه مقاصده وتصبح صفعاته نوعاً طبِّياً من الشطح والعرفان والدفاع عن الحياة.

وكان الأحنف صامتاً وواجماً وهو يستمع ويتعجّب، وعندما سأله قاضي القضاة عن أسباب صفعته وهل لها دلالات عميقة وأبعاد، قال الأحنف بعد أن تحامل على جسده واتّكأ على مصطبة قاضي القضاة:

- كان الهدف من الصفعة أن أصل إليكم يا سيدي يا قاضي القضاة، فقلت بذلتُ الجهد والمال لأحظـــى بلقائكم.. فلم أقدر فقلت في نفسي.. إن طريق اللقاء بكم.. يكون عن طرق ارتكاب الجرائم والموبقات، ولأنني لا أحبُّ أن أبالغ في إيذاء الناس فقد اخترت

الصفع المفاجئ.. لأتقرب منكم وأعلمكم ما يعتمل بنفسي من رغبات .

فالتفت قاضي القضاة إلى الأحنف وألقى عليهِ وابلاً من النظرات وقال:

- فما هي رغباتك؟..

فقال الأحنف:

- رغبتي أن أخطب ابنتكم.

فاستبشرت أسارير القاضي، ونزل عن سدتهِ وركض إلى الأحنف وعانقه، ثم تأبطّ ذراعه ومشى به إلى بيته أمام دهشة الحضور، واستغرب ممثل النيابة وشُهادِّ الزور.

وفي البيت يا مولاي، أمر قاضي القضاة بفرش صيوان باذخٍ من المأكول والمشروب والمنقول، وبسبب الحفاوة الشديدة شعر الأحنف بالغربة وعجز عن القضم والبلع و تمترست اللقمة الأولى في زوره، وكادت أن تودي به، وعندما دخلت ابنة القاضي لتنجدهُ بالماء، وقع الأحنف في الزرقة البهية والإغماء وكادت لقمة القاضي وابنتهِ أن يوديا به.

كانت ابنة القاضي معصوبة العين والجبين مثل تمثال العدالة المعلّق على واجهات المحاكم في البلدان البعيدة، وقرب التمثال وحولهُ كفّتان مضطربتان للميزان.. وكانت البنت صنفاً فريداً من النساء يحسّ الناظر إليها وكأنّهـــا متحدّرة من سلالة القراصنة المعصوبي الجماجم وقـــد احتدمت فوق دروبهم ومياههم الأمواج العاتية والرايات السوداء ومخاوف الأسماك والحيتان.

بعد محاولاتٍ مُضنيةٍ بذلها القاضي وابنتهِ لإيقاظ الأحنف تماثل الأحنف لليقَظة والروح ودخل في نوبَة من السعال المتلاحق حتى خرجت اللقمة من فمهِ مثل قذيفة، ولو لم تكن ابنةُ القاضي (رغم العصابة علَى عينيها) تتمتّـــعُ بالحكمة والحذر الشديد لأصابتها القذيفة وأودت بها ولكن ابنة القاضي انحرفت عن مسار القذيفة فنجت ونجا من معها.

كان انحراف ابنة القاضي يا مولاي، عمـــلاً بـــالغ التأثير، وعندما وصل خبر انحرافها إلى فتيات الحـــارة ونسائهن شهقن من الإعجاب، وبدأن بتنـــاول ظـــاهرة الانحراف لدى الفتيات وأبعادها، وبأنّ بعـــض أشـــكال الانحراف مطلوبة، وقد دللن على ذلك بانحراف ابنـــة

القاضي عن قذيفة الأحنف.. حيث نجح انحرافها بالإبقاء عليها في زمرة الأحياء.

بعد أن انتهت الأمور على خير وامتلأت الغرفـــة بالشظايا والأطعمة المقذوفة، نهض القاضي غاضباً وفي قصدهِ وخطّته مغادرة الغرفة وإرسال حرّاسه الشخصيين لحملِ الأحنف وقذفه إلى المحيط غير أن الابنة بثاقـــب جوعها ووحدتها فهمت قصد والدها فلحقت به ورجتهُ أن لا يفعل وقالت لهُ:

- لو لم يكن القضاة على هيبةٍ ومكانة وأحكامٍ ثقيلة، لما غصّ الناس واختنقوا في حضرتهم، ثمّ إنني عندما لمحت هذا الشاب الأحنف تتبعتُ خطواته وعرجهِ الخفيف، لحظة دخولهِ دارنا العامرة، وشعرتُ نحوه بالأواصر والخفقات وأنت تعرف يا والدي بأنه الفتى العاشر الذي يتقدّم لخطبتي ويحتقن ويغصُّ من وطأة هيبتك ورؤيتهِ لي، فأنت يا أبي عندما تلقي به إلى التهلكة، فأنت تلقي بي وتزيّن لي انحرافاً مختلفاً لن تغتفره لي النساء. فأنا رغم العصابة التـــي تنهــك رؤياي وأنوثتي فقد سوّلت لي النفس أن أنتهك مكتبتك لأتعرّف على القوانين الدائمة والقوانين الغائمة التي

تتأرجحِ، بين سدّة العدل ودرك الأفعـــال الـــشائنة وتابعتُ القراءة والتحليل والتأويل.. حتى بدأ الشكّ يخامرني في دنياي وطبيعتي، ثمّ بدأ الشكُّ يخامرني فيكِ، وبدأت تنتابني وتلحُّ عليّ رغبةٌ في ارتكـــاب جريمة موصوفة، فأنت من زمان طويل تعـــاملني كمتهمة ولا تعاملني كابنة. وفي ذلك ما فيه من الظلم والتنكيل .

وبسبب الحزنِ الشفيف والكلام الرهيف الذي صدر عن ابنة قاضي القضاة.. غادرتها ملامـــح القرصـــان وأصبحت فتاةً في غايةِ الفتنة والجمال. كأنّما ستموت في الحال. وعندما لمح قاضي القضاة ابنته وقد أصبحت في صورة تسبي العقول والقلوب قرّر أن يغيّر في موقفـــهِ ويصبحَ حكيماً عادلاً عسى أن تُفلحَ الحكمة والعدل في تحويله إلى كائنٍ جميل مثل ابنتهِ بعدَ أن كانَ في هيئةِ الغيلان والتماسيح.

وهكذا رجعا معاً، قاضي القضاة وابنته إلى الأحنف، لتطبيب خاطره وإعادته إلى الطمأنينة والهواء، وعندما أفلحا، فوجئ الأحنف بالفتاة التي تجاوره وتداريه، فسألها عن اسمها فقالت له أنا ابنة قاضي القضاة وهذا والدي،

الذي حدّثته منذُ قليل في خطبتي، فقال لهـــا الأحنـــف متعجّباً:

- ولكنّكِ منذُ قليل كنتِ ..

فقالت الفتاة:

- وها أنا قد صرت.. فكيف تراني . .؟

فقال الأحنف: سبحان الله، ليس في خطتي وأحلامي أن أخطب لنفسي فيٍ بريقكِ ورقتكِ، أما وأنّكِ كذلك فأنا على قدر عظيم وحظ وافر إن رضيتِ بي.

فقال قاضي القضاة:

الحمدُ لله، ما دام الأمر تحقق على هذا القبول وهذه الصورة .. فاذهب من وقتك ساعتك وأرسل إليَّ والدك ليحدثني في طلب يدِ ابنتي مني .

فقال الأحنف:

والـــدي مـــــــات !!

فقال قاضي القضاة:

فأرسل لنا أمك .

فقال الأحنف: تلك هي الطامة والمسالك الضيّقة، ففي روع أمي وغايتها أن تخطب لي عدداً من الفتيات بعدد ما في بيتنا من دجاجات، فلا تسألاني في الأمر رأياً واسَألا

صاحب الشرطة عن الدوافع والأسباب فهو الذي دفعها للمبالغة في عدد الفتيات والزوجات .

فالتفتت ابنةُ القاضي إلى الأحنف والتفتــت معهــا دموعها، وأشارت إليه لينهض إلى أمّه ولا يعــود، لأن طلبهُ لخطبتها مرفوض، ثمّ قالت ابنة القاضي كلمتها التي كادت أن تذهب مثلاً في الناس (إن كان في عُرف الديك أن يخطب لنفسه عدداً كبيراً من الدجاجات، فليس هذا في أعراف ابنة قاضي القضاة) ثمّ مضت حزينة إلى الباب.

حين وصل الأحنف إلى أمّهِ، وجدها تزرعُ عكّازها وخطواتها في التراب وتتحرك على وجل وطول انتظار، وعندما لمحت ولدها الأحنف وخطواته هرعــت إليــه وعانقته كما تُعانق الأمهات ولداً عائداً من الحرب، بعد أن حسبهُ الجميع من جملة الأموات، فقد استقرّ في كتــاب الحارة وأعرافها أنّ الذاهب إلى القاضي مفقود، والعائد من وراء أحكامهِ مولود.

غير أنّ الأحنف خالف الناس فيما اعتقدوه وذهبوا فيهِ كلّ مذهب وتحدث عن قاضي القضاة كلامــاً تــشيب لبلاغتهِ الولدان، وعندما وصل إلى ابنته قال فيها كلاماً لا يقوله عَاشقٌ مجنون، ويا أمي.. ورغم أنني لم ألمح الفتاة وفتنتها في الدكّان، ولم أقرأ تنهدات نهديها وما يعتمل في أعطافها من فتنة وارتهان، غير أنني شعرتُ بأنني أعرفها

وكأنّما لم تبارح روحي صورتها. كأنـّـــــما لم أكن أعرف في زماني كلّه غيرها من الفتيات، تلك كانت صورتها عندما عادت مع والدها في المرّة الثانية، أمّا عندما دخلت في المرّة الأولى عليٍّ بالماء، فذلك شأنٌ آخر لا أحبُّ أن يعرف عنه أحد شيئاً من الإنس والجان، فقالت الأم:

- فلماذا رفضتك؟..

- هي لم ترفضني . وإنما رفضت خطتك فـــي أن تخطبي لي فتيات بعدد الدجاجات .

فقالت الأم: هذا سر من الأسرار.. لا تكتمل الحكاية إلا به. ولاتضطرب إلا مع سواه، الوحدة والواحد، صفة في الله واسمه وصورته وجوهره ومعناه، أما التعدد فهو شأن يخصَ المخلوقات ولا يبـــارح الكـــائن وهيـــولاه فالارتهان لزوجة واحدة كما فعل أبوك يدفع بالرجل ليكون سريعا في عداد الأموات، لذلك أخاف عليك.

- هذا ما حاولت أن أقوله لابنة القاضي عنكِ لكنّها رفضت .

فقالت الأم: بعد أن رفضتك ابنة صاحب الشرطة، وتبعتها في الرفض ابنة القاضي، بقي أمامنا خطبة ثلاث فتيات.

الليلة الرابعــة

الأحنف وبعد أن فشل في خطبة
بنـــــات السلطة يحـــاول أن يخطب
لنفسه واحدة من بنات المعارضة .

في الليل قعدت الأم إلى تمائمها وتعاويذها وما تحفظه من صلوات، فقرأت وأغضت ونفخت في المكان، وطلبت من الله العون، في اختيار فتاة ملائمة ثم وضعت تحت وسادتها ورقة كُتبَ عليها ثلاثةً أسماء، ثمّ تمدّدت ونامت.

وفي الصباح تغضّنت وتقلبت وتفصّدت منها أحلام متباينة وعرق غزير لذلك أطلقت صرخة عظيمة ارتجّت لها الأنحاء، فهرع الابن إلى سريرها ومصيرها، فوجدها قد هدأت وتابعت نومها كأنّما لتنصب فخاخها للمزيد من الأحلام.

في صبيحة اليوم التالي، جلس الأحنف إلى أمّهِ وقال لها:

- أمّا وقد فشلنا في خطبتين ومع فتاتين عجيبتين، هما ابنة صاحب الشرطة وابنة قاضي القضاة، أما وهما

معاً القاضي وصاحب الشرطة يعملان في مؤسستين تابعتين للحكومة . فقد حدثتني نفسي في ليلتي الماضية أن أبتعد عن الحكومة وأتقرّب من المعارضة ورجالاتها لأخطب لنفسي واحدة من بناتها.

فصرخت الأم صوتاً من قحف رأسها وقالت:

- لا وألفُ لا. كل شيء إلا التقرّب من بنات المعارضة وخطبتهن.

فقال الأحنف لأمهِ مواسياً:

- ولم، وهل ارتكبت المعارضة في غيابي وفي غفلةٍ منّي إثماً يدفع من هم في مكانتي ودأبي للتريّث والتفكير.

فقالت الأم: لا.

فردّ الأحنف: فلمَ الحذرُ والتريّث منهن..؟

قالت الأم: رجالات المعارضة بناتهن جميلات، لذلك وقف الكثيرون في صفّ المعارضة واحتضنوا أفكارها طمعاً باحتضان بناتها، أمّا الواقفون في صفّ الحكومة فليست لهم بنات جميلات، لذلك ذهبوا إلى الحكومة ووقفوا في صفّها. البنات الجميلات يا ولدي يدرن الرؤوس ويشعنَ الفتنةَ بين الناس.

فلا يقدر الابنُ على الإلتفات إلى أمّه وما يخالجها من خطرات فقال الأحنف:

- تلك هي الطبيعة والروح، الأبناء في كلّ زمانٍ ومكان منحازون للجمال والليونة والأمهات المتقدمات في الحذر والسن منحازات للحكمة والحكومة، لذلك تقع الحياة في البلبلة وتقع البنات في العنوسة .

ثمّ حدّق الأحنف في أمّهِ وقال: فأي الجهات تختارين، الحكومة أم فتيات المعارضة الجميلات..؟

فقالت الأم: رغم أمومتي وضعف بصري، إلا أنني أرى في أيامك القادمات ما يوهن رجلك الثانية ويفتّ في عضدك، فلا يغرنك الجلد المشدود والبريق. وابحث عن ما هو مخبوءٌ تحته لتتمكّن من رؤية المصير.

- ليس سوى جلد الفتيات الناعم من ينهكُ طبيعتي، ويفتت جلدي، وأجدني في حاجة إلى فتاة تجاورني لأغرق في طبيعتها وتغرق في طبيعتي فحاولي معي، ولا تكوني ضدي.

فقالت الأم: ليس في قَدَرِ الأمهات أن لا يكنَّ في صفّ أولادهن فاقعد بعيداً عنّي لأراك، وأحدّثك عن حلمي وتقلّبات ليلتي الفائتة.

فقعد الأحنف قرب أمه ليراها، فقالت الأم:

- لقد رأيت فيما يرى النائم نفسي وهي تسير، لا ولد ولا تلد والظلمة من ورائي وأمامي، فتقدمتُ، وتابعتُ التقدمَ حتى تلامحت في عتمتي ورؤياي فتاةٌ على خفرٍ ولدونةٍ وصدرٍ متوثّبٍ وعينينِ مخضلّتين، وكأنّ وجهها يذري بالعتمة، ويصدرُ ضوءهُ من ذاته فتقدمت من بهجتها وتقريت ملامحها وعندما سألتها عن اسمها ورتبة أهلها، غابت في اللُّجة وكأنما أطفأت أسئلتي بريقِهَا، وفتنة أعضائها - لذلك رجعتُ إلى الحلم وبدأتُ البحث حتى عرفتُ بيت الفتاة ومعدنها وطبيعة القضبان التي وقف خلفها والدها، الفتاة يا ولدي هي ابنة قطب المعارضة البارز في الحارة والأطراف (الأرقم الذرِّي). وها أنا أُخبرك وأدفعك إلى أقدارك، وأُحذرك. فاختيار الفتيات الجميلات للزواج محاولةٌ واضحة للنيل من الحكومة وبناتها القبيحات فماذا تقول..؟

فأجاب الأحنف: أمّا وقد فشلتُ مع الحكومة وأقطابها وبناتها من صاحب الشرطة إلى قاضي القضاة، فلأجرّب حظي مع بنات المعارضة، فربما أفلحت في آخر الأيام في أن أكون من سجناء الرأي.. أو سجناء الجمال، فالجمال يفعل ويؤثر والجمال يرفع، وهو خصلة من خصال الجنّة فهل أبدأ أنا.. أم تبدئين.

قالت الأم: ابدأ أنت واستمل قلوب الرجال.. تتبعك النساء كانت الخطة أن يغير الأحنف في ثيابه ومعرفته وأن يدرّب رجله على الخطو السريع، وأن يملأ نفسهُ بالارتياب من الحكومة وبرامجها ليكون أقرب إلى قلوب المعارضة ورجالاتها وأكثر استقطاباً لتنهدات فتياتها ليصير من المتيّمين، ولكي يتقدم سريعاً إلى بغيته، قرر أن يذهب إلى رأس الحارة حيث تباع الصحف والكتب و المحاذير، ليشتري ما هبّ ودب من صحف الحكومة، وعندما تمكنّ من ذلك حمل الصحف واتجه إلى مكانٍ لا تطالهُ عين ولا يضطربُ فيهِ ظن.. وحين تمكن من نفسهِ جلس في أصل جدار بعيد، وبدأ يتصفّح الصحفَ، وعندماَ سمعَ قعقعة الأوراق الواسعة للصحيفة الأولى، تلفت بحذر، وقرّر أن يتوقف عن التصفح حتى لا يفتضح أمره، ويكتفي بالصفحات الأولى، حيث تتربع مقالات رؤساء التحرير، وعندما أتمّ القراءة والتبصّر صاح:

- يا الله، إنّ بلاغة الصحف وافتتاحيات رؤساء تحريرها أكثر فتكاً وإثارةً من الزلازل والبراكين.

لذلك بدت لهُ أمّه على قسوة وابتعاد عن الحق، عندما نهتهُ عن التقرب من بنات المعارضة. بعد قيام الأحنف بقراءة عدد من الافتتاحيات ولأيام متوالية وقرب جدران

متباعدة، تبيّن له السبب الذي يدفع بنات الحكومة للعنوسة والتهدُّل والاكتئاب العميق، وشعر نحوهن بالريبة والتضامن، فالقبح وجفاوة الجلد لم تكن مظاهر أصيلة فيهن.. لذلك تغضّنت جلودهن وأرواحهن بسبب الأنظمة و الافتتاحيات التي تفعل فعلها في السر، والذي عزّز عزلة الفتيات الحكوميات وجفاوة طباعهن، انصراف الآباء للسيادة وإحصاء الأنفاس، لذلك حمل الأحنف كومة الصحف ورتبها حسب المواقيت واللعنات، واقترب من حاوية مجاورة للزبالة ومزقها ثمّ ألقى بها في الشتات، ولأن للأحنف أقداراً ومصائر لا تأكلها النيران، فقد شاهده واحد من رجالات المعارضة المتربصين وهو يقوم بتمزيق صحف الحكومة وأهدافها، فاطمأنّت له نفسه وتمدّدت أساريره واقترب إلى جهة الأحنف وقال...

فانتفض شهريار من هجعتهِ وسأل شهرزاد بغضب: كيف عرف الرجل أن الصحف الممزقة هي صحف الحكومة؟ فقالت شهرزاد: عفوك يا مولاي.. الأمر جدُ بسيط، فالورق الذي تطبع عليه الحكومات صحفها، ورق من نوع غال وهو قادر على احتمال الأفكار البليدة التي تصدر عن المحررين، وبسبب جودة الورق ومخاوفه يصدر أصواتاً مفزعة عند التمزيق، ورجال المعارضة أقدر الناس على المعرفة والتمييز والسبب واضحٌ أيضاً..

فالورق الهشُّ الذي تستخدمه المعارضة لمطبوعاتها السريّة لا يصدر صوتاً ولا نأمة، ويتفتت ويذوب تلقائياً عندما يتدخل الرقيب، فاطمأن شهريار لكلام شهرزاد وقرر أن يتشدّد في استيراد الورق الهشّ ليقطع على المعارضة الطريق.. ثمّ ابتسم ابتسامة باذخة، ليؤثر في مقادير الحكاية وبغيتها وعندما أتمّ شهريار الابتسام، نظر إلى شهرزاد وقال: سأجعل رجال المعارضة يكتبون بياناتهم على أقفيتهم حتى لا يكون ورق كاف لستر الكلمات والعورات.

ثمّ نهض غاضباً دون أن ينتظرَ انتهاء الحكاية أو صياحَ الديك.

في اليوم التالي تابعت شهرزاد الحكاية وحدها، حتى خلت روحها و أبطال قصصها من أي بريق. ورغبة من شهرزاد في الخلاص من الحالة فقد حاولت أن تؤلف ملكاً من توقها ورغباتها وطلبت منهُ أن يتمدّد على الأريكة وفي طول الحكاية وعرضها، وبدأت تحكي له وتقول لهُ يا مولاي، وقد فعلت ذلك لتمنح الحكاية ما يبهجها ويؤلّف عناصرها، ثمّ وفي برهة أو بعضها خيّل لشهرزاد أن ملكها الجديد يشبهُ الأحنف في حدود، ويميل عنهُ في حدود، وفجأة وبينما كانت شهرزاد تؤلف شهريارها

الجديد وتمدّده، دخل شهريار القديم وتمدّد في ظلال الثاني وفي مكانته، فشهقت شهرزاد من الدهـــشة والانفعـــال، وحتى لا تفرّ منها دهشتها، وضعت يدها على فمهـــا، وهمست:

ـــــ ربما يفلحُ شهرياران في أمرٍ عجــز عنـــهُ شهريارٌ واحد.

ثمّ تابعت حكايتها وقد ملأتها لذّة غامرة..

- الحقُّ يا مولاي، إنّ رجل المعارضة عندما رأى الأحنف أو من هو في حكمهِ وهو يقوم بفعل التمزيق، اقترب من أصابعهِ التي مزّقتَ وألقت واحتضنها بحبٍّ شديد وقال للأحنف:

- هنيئاً لك يا أخي ما فعلت، وهنيئاً لك خلاصك .

فاستغرب الأحنف واضطرب وسأل الرجل عن نوع الخلاص الذي يقصده، فقال الرجل:

- خلاصك مما لحق بك من صحفٍ ومفاســد وأدران وقيامك بإلقاء كلّ ذلك في الحاوية، وليس ذلــك فـــي عرفنا بشيء قليل.

ثمّ أشار الرجل إلى كومة الصحف التـــي مـــلأت الحاوية، وبعد أن فعل. أمسك الأحنف من كفّيهِ وجرّهُ إلى عناقٍ طويل وقبلاتٍ لا تهون وعندما أتمّ ذلك بنجاح التفت

إلى الأحنف وأخبرهُ عن حزبهِ ونفسه وبأنهُ من رجـال المعارضة المتبتلين، وبأنّهُ لم يكن في ساعةٍ أو يومٍ من رجال السلطة وأتباعها وذلك فضلٌ من الله وحظٌّ عظيم. ثمّ سأل الأحنف عن مهنته، فأخبره الأحنف عن دكّانـهِ ومصطبته، وعن تخصّصه ببيع الثياب الداخلية النسائية الفاضحة وهذا أمرٌ يحتاج للدقّـة والمتابعـة والـصبر الطويل، ثمّ توسّعَ الأحنف في شرحِ التفاصيل وأخبـر الرجل عن حمّالات الصدر القابضات علـى الأحـلام والحلمات والمصير، وانتقل للحـديث عـن الغـلالات والاحتقانات والظمأ العنيد، وبسبب استرسال الأحنف، وعدم قدرة قطب المعارضة على الصبر والتجمر فقد صرخ في وجه الأحنف صوتاً وانخرط بعد ذلك في بكاءٍ طويـل، وعندما هدأت عناصره وأوصاله، قال للأحنف:

- لقد زيّنت لي المعصية بما أطلقته عـن الثيـاب الداخلية من حديثٍ مثير، فأنا لم أكن أعرف أن ثياب النسوة أفتك في النّفس وأكثر تأثيراً مـن النـسوة ذاتهن، إنني أسأل الله الصبر والارتهان للـصمت حتى لا تكون في الأرض محنة وضباب كثير.

ثمّ التفت الرجل إلى الأحنف وسألهُ: فما هي بغيتك بعد أن عرفنا مهنتك..؟

فقال الأحنف: بغيتي التقرب من المعارضة لاستميل قلوب فتياتها فهل لدى تنظيمكم فتيات جميلات لأتمكّن من نفسي وأنهض وأعيش.

فالتفت قطبُ المعارضة إلى الأحنف، وصاح في وجهه قائلاً:

- أُغرب عن وجهي وأيامي.. فأنت أكثر تهتّكاً من الزنادقة والمارقين.

ثمّ دفع الأحنف دفعةً كاد على إثرها أن يقع في حلوية الزبالة المجاورة، ليتقاسم مع الصحف الممزّقة المكانة والمصير.

بعد أن نهض الأحنف من دهشتهِ وأطراف النفايات التي علقت بثيابه ترك الحاوية وابتعد حتى لا تلمحه عين، تركها وحيداً ومضطرباً وقد ضلّت عنهُ رؤياه وجفاه الطريق، وبسبب العرج الخفيف الذي يوهن خطواته ويوردها غامض المصير، وصل إلى طريقٍ مسدود، ولأنّه لم يكن منتبهاً إلى نهايته، فقد أوغل فيهِ حتّى ارتطم وجهه بالجدار الأخير.

والجدار يا مولاي يورث الناس اليقظة، والحزن العميق، فما كان من الأحنف بعد هذا الارتطام سوى أن

استعاد وجهه السابق و وجهته ومضى إلى الجهة الأخرى كأنّما لم تكن له في برهة أو يوم. مصطبة وأتباع وأم.

وفي طريق العودة، هبطت عليه من ذرا الأشـــجار والجدران شبكة واسعة وقد تعلّقت بأهدابها جماعة ملثّمة من الرجال وعندما أتمّ المتقاطرون شـــروط الإحاطـــة والاستدارة والربط. وأغلقوا عينيه وجهاته حملوه ومضوا به إلى الأسر. وحتى لا يتركوا في ذهنه إشارة أو دلالة، فقد أصعدوا جسده إلى ذرا كثيرة، وهبطـــوا بـــه إلـــى منحدرات عميقة، وعندما استكملوا معه شروط التعمية والرطوبة والتضليل.. ألقوا به في القبو ومضوا عنـــهُ صامتين.

بعد مدّة من العتمة الفائقة والأنين. هبط إلى القبـــو رهطٌ منَ الفتيات الجميلات، وقد هبطنَ بحذرٍ حتـــى لا تتشوّش خطواتهن بسببِ الدرجِ الزلِقِ والرطوبةِ العالية، وعندما وصلنَ. أزلن عن الأحنف الثياب والخطوط الحمراء التي غرستها في جسدهِ خيوط الشِباك، وملأن جسدهُ بالدلك والدغدغة حتى استوت فيهِ الروحُ والجسدُ وعندما تمّ فيه ذلك فتح عينيهِ ويا لهوله من نفسهِ ومن الذي رآه.. فتياتٌ على نظرات وأجساد ثاقبة، وقد نفرت حلماتهن من تحت الثياب حتى صار ممكناً معرفة أحلامهن ولدونة أطرافهن،

لذلك تشوّش الأحنف وترمّش وضاعت منهُ رؤياه، وقد اضطره ذلك لأن يفرك عينيه ليستعيدهما ويستعيد ما فطر عليه من قدرة على الإبصار وقد تأكّد له بعد أن فعل، أنه كان طوال عمره الماضي يعيش أضغاث أحلام، وأنّ لحظته تلك هي الحياة برمّتها.

شيءٌ وحيد أربكه وفتّ في عـضده، أنّ الفتيـات الهائلات اللواتي شغلن عناصرهن وسجاياهن باستعادته لجسده وتوثّبه، كنّ أجمل من أن يقدر على الفهم، ولكنهن كنّ متجهمات متبرّمات، ولم تحاول أيٌّ منهن الابتسام، كأنّما جُبلت أصابعهن وملامحهن على الحـذر وسـوء الظن.. وقد فتّ هذا في عضد الأحنف ودفعه للتحيّـر والاحتقان.. وعندما همّت الفتيات بالأحنف وجسدهِ دون أن يهمّ بهن، وعندما حملنهُ على أكتافهن وصعدن بـه الدرج، تمنّى أن تنزلق بهن أقدامهن ويقعن عليه ويقـع عليهن، حتى يتمكّن من فهم الأسباب الموجبة لعدم قدرة الفتيات على الكلام والابتسام، غير أنّ أقدام الفتيات، لم تستجب ولم تنزلق كأنّ بينها وبين الدرج والرطوبة، حذرٌ متبادل ومواثيق،و هكذا نجحن في إخراج أجسادهن من المكان، وكان جسد الأحنف ممدّداً على أكتافهن، وكـان

جثمانه المحمول يشبهُ أجساد المقاتلين التراجيديين العظام، عندما يتمُّ نقلهم إلى الذروة والنهاية في لحظةٍ واحدة.

وقد خطرت ببال الأحنف فكرةٌ أن ينهض من ذروة الأكتاف ليركض في الجهات باحثاً عن مصيرٍ مغاير، كما يفعل الرجال العاديون الباقون على قيد الحياة، غير أن اللدونة والأكتاف الطرية والفتيات الفارهـــات يغـــرين بالبطولة، ويبقين على صاحب الجسد الممدّد ممدّداً كأنما لا نهاية للطريق.

حين وصل الأحنف إلى القاعة الكبرى استقبل جثمانه بالهتاف وبعد دورة أو دورتين مالت به الأرض والفتيات وأصبح سويَّ الهيكل مضطرب النظرات.. فاستلّت الفتيات الفارهات أجسادهن من تحتهِ بعد أن أطلقن فيهِ القدرة على الانتباه فوقف وانتبه، ويا لغرابة نفسه من سعيه ومما رآه.. كانت القاعة مملوءةً بحشدٍ من الرجال والفتيات وفي صدر القاعة توقع الأحنف أن يرى نهدين عظيمين كما يشاهد الرجل في كلِّ صدرٍ يرآه.. غير أنه لم يجد في صدر القاعة شيئاً من ذلك بل شاهد رجلاً وحيداً قاعداً خلف المكبرات، فحدّق فيهِ ليتبيّنهُ ويتأكّد إن كان عرفه في يومٍ من الأيّام، لكنّ ذاكرته لم تسعفه في معرفته واختلطت في رؤيـــاه وذاكرتهِ الصوّر والصرّخات.

بعد الاحتفال الترحيبي الذي استقبل به الأحنف، أحاط به الرجال والنساء وهمّوا به ولكنهم لم يحملوه ليلقوا به في الجب كما فعلوا في أوّل لقاء.. وإنما بدؤوا التمسُّح والتبرّك بجسده وخلاياه، كما يفعل الوثنيون بعجل أُعدّ بطريقة لائقة للذبح والفداء، وبسبب القداسة الزائدة أصيب جسد الأَحنفً بالحكّة والاحمرار فاضطرب وانتفخ وكاد يطير من بين أكفّ الوالهين والأغيار، وما هي إلا برهة حتى أصيب المكان برعده، فانفضّ المتحلّقون عن جـدث الأحنـف وجلدته، وأصاخوا إلى صدر القاعة وكانوا في هيئة رجلٍ واحدٍ ونظرات موحّدة، كأنّما لم تكن في القاعة سوى بقعةً واحدةً. ولم يكن فيها سوى رجلٌ واحد، ثمّ نهض الرجل القاعد في صدر القاعة بدلاً من نهدين متوثّبين، وأعطى للواقفين والذاهلين الإشارة والبرهان، فقعـدوا.. وظـلّ الأحنف واقفاً، وعندما تلفّت حواليهِ ولم يجد أحداً مـن الواقفين سواه، بادر إلى الجلوس فجاءتهُ الصيحة:

- أيها الضيف العزيز توقّف!!

وعندما اتجهت الأنظار إليه عرف الأحنـف أنّـهُ المقصود بالنداء، فأعاد جسده إلى الوقوف الحائر الـذي كان. فبادرهُ الرجل الواقف في صدر القاعة فقال:

- لقد بحثنا عنك طويلاً وعميقاً، وتلهفنا إلى خطواتك الواثقة وانتظرناك، وأصغينا إلى مصطبتك وخطاباتك ووددنا أن تكون واحداً من توقنا إلى الانقضاض والوصول حتى لا تكون لسوانا سلطة ومكانة وحضور. وقد حالفنا الحظّ وتمكنّا منك عندما خذلك صاحب الشرطة، وقاضي القضاة، وظللنا في الرصد والمتابعة حتى عرفنا دلالة أفعالك وأصوات تمزيقك للصحف والأوراق قرب الحاوية. وعندما اقترب من خطواتك وأفعالك رجل من المعارضة الأخرى المعادية، أصبنا بالرعدة والزلزلة وشعرنا بأنّنا قاب قوسين أو سهمين من خسارتنا لك، لذلك أغلقنا الدروب أمام جهاتك وخطواتك وبدأنا بنسج الشباك الملائمة وتدريب الفتيات اللائقات للفوز بك واصطيادك فماذا تقول في خطّتنا وتنظيمنا وقدرتنا على الوصول..؟

فقال الأحنفُ مرتعداً:

لا أقول إلا كما قال مختارُ حارتنا.. اليوم صبر وغداً ضياع أجر.

ثم تهاوى في بئرٍ من الإغماء لا قرار له ولا حواف، فتراكضت إيه الفتيات وهممن به.. وظللن على ذلك حتى

استعاد جسده وأضاع نفسه.. وعندما تمكن من الهواء نظر حواليه وقال:

أين أنا؟.. وهل يمكن للغيبوبة أن تمنح صاحبها يقظة بهيّةً وفاتنة مثلما أشاهد وأرى.

فصاحت الفتيات بصوت واحد: **يمكن** بعد ذلك تدخل الرجل الوقف في صدر القاعة وقال:

- فماذا تقول في أفكارنا وأسلوبنا في مواجهة الشدائد والمنغصات؟..

فقال الأحنف:

- ما دامت فتياتكم على هذه الفتنة والبريق فليس من حزبٍ أو جماعة أقرب إلى نفسي منكم ومن أهدافكم.

فالتهبت الأكفّ والجنبات بالتصفيق، وعندما تمّ الأمر دونَ زلزال، تابع الأحنف الكلام فقال:

ورغبة منّي في التقرب منكم، فقد قرّرت أن أنفّذ خطة أمّي في هذا الشأن.

فارتجّت القاعة بالضجيج والصرخات، مما دفع الرجل الواقف في صدر القاعة ليبذل جهداً فاضحاً في إسكات الحضور، حيث اضطر إلى تهديدهم بالعقوبة والفصل والتنكيل، وعندما نجح في إسكاتهم التفت الرجل إلى الأحنف قائلاً لهُ:

- وما هي خطّة أمك في هذا الشأن؟..

فقال الأحنف: خطّة أمي معروفة للقاصي والداني ولصاحب الشرطة وقاضي القضاة، وتتلخّص في إصرارها على أن تخطب لي خمسُ فتيات، بعدد ما في بيتنا من دجاجات،، وأنا عندما سقطتُ في الغيبوبة ولمحت ما عندكم من فتيات قرّرت أن مشيئة أمّي هي النافذة ولا بأس لي من أخطب لنفسي من صفوفكم المتراصة لأتمكّن من استيعاب ما تطرحونه من أفكار وأهداف، فأنتم كما لاحظت متساهلون في شؤون الجسد وشجونه وتحضون على ذلك في الحارة والمعتقلات.

عندما أتمّ الأحنف كلامه، حاصره الحاضرون من كلّ الجهات ورفعوا قبضاتهم إليه وكادوا أن يهمّوا به بطريقةٍ مختلفةٍ عن الطريقة التي همّت بها الفتيات، وقد أدركً الرجلً الواقف فيٍ صدر القاعة الدوافع فصاح في الحاضرين صوتاً سمّرهم في أماكنهم.. وهكذا حالت الصرخة بين الأحنف وبين أن تودي بهِ القبضات.

ثمّ رفع الرجل الوقف في صدر القاعة مثل شرطيين متأهبين.. صوته وسأل الأحنف عن موقف أمه في حال امتلاكه لمدجنةِ لتربية الدجاج.. وهل ستطالب بأن يتزوج من الفتيات بعدد ما في المدجنةِ من دجاجات.

وقد حار الأحنف من وجاهة السؤال وصعوبته، وبعد استغراق طويل رفع رأسه إلى الأعلى وقال:

- لو أنني امتلكت مدجنة في يومٍ من الأيّام، لخرجت على إرادةِ أمي، ولما فكّرت في ساعة أو يومٍ في الزواج، لأنني أخاف أن أفعل بالدجاجات كما فعل شهريار بالنساء قبل أن يتعرّف على حكايات شهرزاد .

وكانت في الحضور دهشة وصمت، ولم تكن في الجوار مدجنة وأصوات، وبعد أن استردّ الجميع أنفاسهم من بلاغة الأحنف وقدرتهِ على الإجابة الشافية، بدأ بينهم اللغط من جديد وتعالت القبضات وضاقت الدائرة والعبارة وتضاءل المعنى وغاب، وانهال الجميع على الأحنف كما ينهال الجبل على الحصاة، وكان أوضح الجميع ركلاً وضرباً وتلويعاً فتيات المعارضة اللامعات اللواتي تضرّجت قبضاتهن بالغضب ووجوههن بالذكريات والشعارات.

وللمرة الأولى خرجت الجماعة على زعيمها الواقف في صدر القاعة مثل ديكين حائرين فلم يلتفت أحد له.. ولما يطلقه من تأنيب وصرخات.

بعد أن تهشمت عظام الأحنف وأصبح جسده في طراوة ولدونة الصبايا الغاضبات، انفضّ عنهُ الحشد،

وحُمِلَ جسدهُ كما تُحملُ أكياس النفايات وأُلقيَ بهِ قــرب حاويةٍ للزبالة، ليتمكّن من قراءة الصحف الممزقة ومتابعة شؤون السياسة وما ينشر في البلد من روائح وتقلّبات.

بعد مدة استعاد الأحنف هيئتهُ ونبضهُ وعضويته و أحسن ما عنده من فقرات، فاستند عليها مستعيناً بجدار الحاوية، ونهض.. وعندما تمكّن مــن تحديــد مكانتــه وموقعه، وقعت عيناه على الصحف الممزّقة داخل الحاوية فهبّت عليه روائح توهن الروح والمخيلة وتشكّلُ أغرب الأفكار. عند ذلك تجاهل الأحنف ما أصاب جسده مــن ضغائن وأعطال وقال:

- عندما تكون السلطة على قدر من التعسف والظلــم.. تكون المعارضة أكثر قسوةً وتعسّفاً منها.. ولا يحصل ذلك كلّه دون مخاض. كأنّما تلد السلطة الغاشمة من رحمها معارضةً أعنف منها.. لذلك تتمدّد الحاوية لتسع المداجن والمدائن والصحف الرسمية والناس ذلك مــا تفصّد من الأحنف من مواجع وأفكار، ولم يكن حوله كَتَبَةْ و مريدون ليسجّلوا ما صدر عنهُ مــن حكمــة وتفاعلات .

وبسبب بلاغته الشديدة وما أحاط به من أفكار وأبخرة عالية ونفايات، وقع الأحنف مغشياً عليه قرب الحاوية مرّة أخرى وتمدّد جسده واضطربت ملامحه وطالت غيبته مما أقلق عليه بال أمه وأهل حارته، فاجتمعوا أمام المصطبة، وبعد فاصل من الولاويل التي أطلقتها أمّه، بدأ أهل الحارة باستعادة كلماته وتعداد فضائله.

وكانت بنات الحارة الناهدات أكثر الناس حزناً واحتقاناً وكانت نهودهن الفارهة.. يؤازرنهن حتى لتكاد أن تنقطع من هول الانفعال الأزرار. حنيناً للأحنف وبضاعته وما علّقه على جدران دكّانه من حكمةٍ عميقةٍ وجوارب شفّافة وقمصان.

أما الأحنف الغائب والممدد. فقد بدأت تبرق في جهاته وأعضائه الحركة والروح، غير أنّه ما لبث أن أوقف جسده عن كلّ ما يؤثر فيه ويوهنه، وقرّر أن الغيبوبة في هذا الزمان أفضل من اليقظة وأجدى، ولكن أمراً حال بينه وبين ما يرغب، عندما اقتربت جحافل أهل الحارة ومشاعلهم ودوت في الجهات الولاويل والهتافات، وعندما اقتربت الحشود من الحاوية كانت الحماسة سيدة الموقف، وليس البحث والتحقق، لذلك انحنى الجميع دون دراية وتمييز لحمل الأحنف.

وبسبب الأكفّ الكثيرة التي حجبت الرؤيا حمل الناس الحاوية وفي اعتقادهم وظنّهم أنها الأحنــف ولا شــــيءٌ سواه، ولو لم توقفهم صرخة الأم العظيمة حيث أشارت للجميع بعكّازها وصوتها بصورة لا لبس فيها ولا مهادنة وقالت:

- الحاوية ليست ولدي فأبعدوها عن أمومتي .

فتراجع الجميع إلى الجهات، وبدؤوا البحث والتنقيب وانتبهوا بأنهم قد دهسوا الأحنف بأقدامهم من فرط الحب وبأن دهسهم له كان أوقع في النفس والعظم من الدهس الذي قامت به السلطة الغاشمة، والمعارضة الغاضبة.

بعد طلب الغوث والنجدات اقترب الطبيب الشرعيٍ المناوب من جسد الأحنف وتفحّصه، وعندما تتسّم فيهِ روحاَ قرّر أمام الجميع أن حملهُ إلى البيت أفضل من إلقائهِ داخلَ الحاوية، وهكذا حُملَ الأحنف على الأكتافِ مرّة ثالثةَ حُملَ كما يُحملُ أبطال الهزائم وبعد مدّة من الحملِ وتفاقم الرائحة، تنكّرت له الأكتاف والحشود، وأُلقي بجسده على حجارة الطريق كأنّما لم يكن شيئاً مذكوراً، حتى الفتيات الناهدات هرعن إلى الجهات المعادية كأنّما لم تكن لأصابعهِ وذكّانه ذكريات وأيام.

وهكذا ظلّ جثمانه ملقىً على عواهنه على حجارة الطريق ولم يكن حوله سوى أنّاتِ جسدهِ وتنهّدات أمـــه التي تحاملت على أمومتها وعكّازها ووقفت إلى جــوار ولدها وصرخت فيه:

- لست أمك إن لم تنهض من برهتك وتهافتك وتذهب معي لتعلن في الحارة القصاص. وتقيم الحدّ والخوف بين الناس.

كأنّما للأمهّات يا مولاي طبائعٌ وصـــرخات تعيـــد تشكيل اللحظة والخلق، وتقيل عثار الأولاد، فيـــنهض الجسد الذي عافته الحياة من وهنه وتهافته، ويصبح أقدر على الوصول إلى الذروة وأجدر فـــي الـــصعود إلـــى المصطبة، وهذا ما كان، وعندما وصل الأحنف إلى بيته رفت إليه خمسُ دجاجات وتبعتها هناهين الأم وما يحمله قلبها من حبٍّ وما يختزنه عكّازها من ضربات.

الليلة الخامسة

عندما حاولت الأم أن تخطب
لولدها ابنة شهبندر التجار

بعد أن تمّ للأم ما أرادت قالت لولدها الأحنف الغارق في النوم:

- بعد الذي نالك من فتيات المعارضة، وأصابك من ابنة صاحب الشرطة وابنة قاضي القضاة، بدأت نفسي تحدثني أن أخطب لك الرابعة، وهي ابنة شهبندرِ التجّار، والتجّارُ أوفر حظاً من سواهم من البشر و الموبقات ولهم في كل زمان ومكان حظوة ومقدار، فتقرّب منهم و صاهرهم، تكون الدنيا لك والمال ويكون القادة والمتسلطون ملك يمينك وعكّاز أيامكَ القادمات.

فقال الأحنف لأمّه كأنّما يهمسُ من بئرٍ عميقةٍ:

- وما يدريكِ ويدريني أن لا تكون ابنةُ شهبندر التجّار على قبحٍ وافرٍ وطول لسان؟..

فقالت الأم: الدراهم كالمراهم يا ولدي، وهي الأقدرُ على إعادةِ الخلق والصياغة وتجميل الوجه والمحتد واللسان. فلاَ تحرّك لسانكَ في مصائرِ الناسِ ومقاماتهم

حتّى تتقرّب منهم وتخلو إلى بناتهم فأنت صاحب دكّان ولكَ مع التجارة شأن ومداولة وبيع، وما يربطك بالسوق وشهبندر التجار، أمتن وأدعى للاستمرار مما يربطـــك بالـــــــسلطة والمعارضـــــــــــة، ولا تـــــــــــنسَ يا ولدي أن عرجك الخفيف الذي لا يظهر فادحاً علـــى المصطبة وفي الدكان، قد يكون مزعجاً على الـــسرير لحظة الارتطام بالنساء ومزاولة الحب والهيام.

ثم ضربت الأم بعكّازها وتركت ولـــدها الأحنـــف لهاويته وما ينغصه من وحدة وتشنّجات. وعندما ابتعدت صاح الأحنف في ظهرها وأمومتها الزاوية، فالتفتت إليه عاتبة. فقال لها:

- الجروح والتقرّحات تملأ دنياي، فلا تتركيني لوحدتي وما حفظته من أدعية قليلة وأحزان، وتقّربي منّي لأعود بهيّاً كما كنت في غابر الأيّام.

فاقتربت الأم من ولدها وقالت: فهل تبدأ أنـــت، أم أنا؟..

فقال الأحنف: ابدئي أنتِ، وحاولي قبل أن أموت أن تسمعيني بعض ما ذوى في روحـــي وذكريـــاتي مـــن الأغنيات.

فاقتربت الأم من ابنها وقعدت إلى جوار جروحه وتقرّحاته، ثمّ رفعت عقيرتها بالغناء. ولأن للأحنف برهةٌ وحنين فقد أودت بهِ الأغنية وطارت بهِ إلى زمانٍ غابرٍ وولد هائلٍ سواه فرأى كما يرى النائم، كيف تتشكّلُ القرون واللحظات، فالتفت إلى نقطةٍ في الكتاب وقال:

- إنّها برهةُ الانتقال التي ليس كمثلها شيءٍ في الأرض والصفات . الجسد مسجّى والقروح غائرة، وعندما يكون ذلك يصبح للموت ضرورة وعذوبة، فلا تمسكي يدي يا أمّي واتركيني لهاويتي وما يوهن نفسي من أخطاء.

غير أنّ الأم ما لبثت أن قطعت الأغنية التي من مقام الصبا ومدّت يدها الأولى وصرخاتها لتنتشل ولدها من الهاوية التي ارتضاها، وعندما لم تفلح.. رفعت يدها التي لا تمسك بها عكّازها وأغرقت وجه ولدها بالصفعات وظلّت على ذلك حتى استعادته في هيئة بهيّة وخدود متورّدة التباريح والقسمات. وعندما تمكّن الأحنف من نفسه وعينيه فتحهما عن آخرهما وقال:

- أليس الموت أرحم من الأمومة والصفعات ..؟

فالتفتت الأم إلى ولدها واعتنقته كأنّما لم تشاهد في حياتها كائناً سواه، وقالت له:

- من أجل عودتك إليّ سالماً من الموت.. أنا مستعدّة لأن أكسر على جسدك ما تبقّى لي من عكاكيز وأيام.. فلا تكن سيء الفهم بالغ العقوق. ولا تحاول أن تبادل أمّك بهاويةٍ أو صندوق.

فاضطربَ الأحنف وقال: لم أكن أعرف أن للموت والصناديق هذه الفتنة والملاسة والتناظر، حواف عميقة وزوايا صريحة، تسع الناس والأشياء وتعطي لكلّ طبيعة سمتها ومعناها والكائن يبذل الجهد والروح ليبادل الطبيعة الواسعة والجهات المفتوحة بصندوقٍ، فالبيتُ صندوق، والدكّان صندوق، والحافلةُ صندوقٌ، والصناديق تملأُ الرفوف وتمسك البضائع والأحلام، حيث تقبع حمّالات الصدور والتنهدات والقمصان الهفهافة الشفافة .

السجن صندوق، والمصطبة صندوق، والقبر صندوق، والخوف صندوق، لقد صنع الناس في البلدان الأخرى صندوقاً عجيباً مَلَؤوهُ بالأسماء والأوراق والألغاز، وأطلقوا عليهِ اسم صندوق الاقتراع، فهل في أمومتك وذكريات ما يشبه هذا الصندوق ويجاوز فتنته.

قالت الأم:

- الفتنة قاصمة وساحرة. والفتنة في المرأة والفكرة، فاحذرهما، واعتصم بالأمّهات ولا ترتهن للصناديق، لقد

استطاع جيلنا أن يتصدّى للغواية، وكان في عرفنا وأيّامنا صندوقان متعارضان، صندوق للزفاف، وصـــندوق للأكتاف، صندوق يحمل الرجل إلى المرأة وصندوق آخر يفرقهما. وما عدا ذلك. صناديق عابرة، لا شأن لها ولا وداد .

وكانت الأم مسترسلة، وعندما التفتت إلـــى ولـــدها وجدتهُ ممعناً في السبات، فنهضت عنهُ ومضت لغرفتها البعيدة وكشفت عن صدرها. وبأصابع متباينة بدأت تتفقّد صندوقها الأخير وما يختزنه من خفقات. وعندما استيقظ الأحنف من غبش ليلته، فتح عينيه عن آخرهما ليتمكن من التذكر، ثم أحضر ورقة وقلماً وبدأ بتعداد ملامــح وأسماء الفتيات اللواتي دخلن الدكان، وقد أجهد نفـــسه ومخيلته في استحضار الأشكال والهيئات وهي في أوضاع متفاوتة واستجابات متباينة، وحاول أن يولّف بين الأجساد والأسماء، وعندما استكمل القائمة التي ملأت عدداً من الصفحات. حاول أن يتذكر إن كانت فيهن واحدة يمكنها أن تكون ابنة شهبندر التجّار غير أنّ الذكريات لم تنفعه ولم توصله إلى قرار، عند ذلك قال الأحنف لنفسه:

- الإنسان عدو ما يجهل من الأفكار والآلات، والإنسان محبٌّ لما يجهل من الفتيات .

وعلى ذلك وطّن نفسه ووضع خطّتهُ للتعرّف على ابنة شهبندر التجّار لتكون إلى جواره امرأةٌ تبعده عن حنان أمّه وما يتحرّك في باحة دارها من أخيلة ودجاجات. وعندما وصل في ذلك إلى قرار، التفت إلى باب غرفتهِ المفتوح، فوجدَ أمه بالباب، وقد ملأته وشتتت ما يعبره من ضوءٍ وظلال، وبعد صمتٍ قالت الأم:

- لقد حزمتُ أمري ووسعت خطواتي وأنا ذاهبةٌ الساعة لأخطب لك ابنة شهبندر التجّار .

عندما وصلت الأم إلى قصر الشهبندر، رفعت عكّازها إلى جهةِ البوابة، فانفتحت وانكشفت أمامها الأدراج والممرّات، فعبرتها حتى وصلت إلى زوجة شهبندر التجّار، وكان اللقاء بين المرأتين محيّراً ويشبهُ اللقاء بين قارّتين. زوجة شهبندر التجّار القاعدة بذلت جهوداً مفرطةً للنهوض والترحيب بالضيفة الطارئة غيرَ أنّ وزنها البليغ دفع أطراف الكرسي العميق للإمساك بها، غير أنّ الناظر إلى شؤون صاحبة المنزل وبعض اللُّهاث الذي كاد أن يودي برئتيها بسبب ما بذلتهُ من جهدٍ في النهوض بجسدها يفهم المسألة. وقد لعبت الأساورُ والقلائدُ الكثيرة المعلّقة في جيدها وعلى معصميها دوراً بارزاً في إبطاء حركتها والإمعان في محاصرتها، وقد تفاقم ذلك بعد أن

داهمتها السمنة بصورة غير مفاجئة، فضاق عليها الجلد والثياب وضاقت الأساورٍ والقلائـــدُ واحتقنـــت الأكـــفّ والأعناق، وكاد أن يتدخل مقصّ الحداد أو مبضع الجراح لتخليص الذهب من الحصار. غير أنّ زوجة شـــهبندر التجّار رفضت كلّ محاولةِ لانتـــزاع الأســـاور، وقـــد اضطرّت لتعزيز رفضها، ًأن تعلن على الملأ كلمتهـــا المأثورة التي كادت أن تذهب مثلاً في الناس والأيّام حيث قالت:

- اللحم الذي ينبق ويتسرب من خلال الذهب والأساور هو اللحم الأنقى والأبقى في كلّ زمانٍ ومكان..

عندما تأمّلت أمّ الأحنف ضخامة وزن زوجة شهبندر التجّار وبلاغة كلماتها وأساورها.. شعرت أمامها بالضآلة والغرابة وقد وقر في نفسها اعتقاداٌ بأنّ شهبندر التجّار قد قام عن سابق إصرار وترصّد بحشو خمس نساء في جلد امرأةٍ واحدة، هي تلك المرأة القاعدة قبالتها والمنـــشغلة بتجفيف قطرات الدم التي تنزّ من ذهب أساورها وقلائدها التي تكبّل عنقها ومعصميها.

ثمّ أشارت زوجة شهبندر التجّار لأم الأحنف أن تقعد قبالتها، فقعدت. فقالت لها:

- إنّ ما أعانيهِ من كثرةِ ذهبي وكثافته، أقلّ كثيراً من معاناة امرأةٍ لا ذهب لها فلا تحزني من أجلي.

ثمّ أعطت زوجة شهبندر التجّار الإذن.. فدخلت عليها نسوةٌ مجلّلات بالبياض والأصابع المطاطيـــة ويحملـــنَ غسولاً ومراهم ومطهّرات وقعدنَ إلى جوارها وبدأن في أطرافها دلكاً وفركاً وتلويعاً، وهي تطلق اللعنات و تكزّ على أسنانها وظلّت على ذلك حتى تمكّنت النسوة مـــن تجفيف قروحها وتضميد ما بدر منها، وقد نجحـــت أم الأحنف في الحفاظ على جسدها مسمّراً على مقعدها رغم ما أصابها.

حين غادرت النسوة المكلّفات بالتـــضميد والتعقـــيم المكان.. تنفّست زوجة شهبندر التجّار الصعداء ثمّ تنهّدت وسألت أم الأحنف.. عمن تكون.. فقالت الأم:

- ولدي من صغار التجّار وله دكّانٌ واسعٌ عند تقـــاطع الطرق والرغبات.. وتؤمّ دكّانَـــهُ النـــسوة الحـــذرات والفتيات الحالمات وقد دفعته حركته السريعة وعرجهِ الخفيف، للحركة بـــين غرفـــة التجـــارة وتجمّعـــات المعارضة، بعد أن بالغت السلطات المختصّة في الريبة منهُ وقد وقر في ذهني أنّ تزويجه من فتاةٍ غنيةٍ سيمنعه من السقوط إذا جارت عليه الأيّام، لذلك قصدتُ بيتك

لأطلب يد ابنتك للأحنف ولدي، وبسبب سمنتكِ الشديدةِ وبطءِ حركتكِ اطَمأنّ لك قلبي وابتهجت نفسي..

فقالت زوجةَ شهبندر التجّار:

- هذا خطأ وضلالٌ بعيد، السمنة لا تُطمئن قلب صاحبها فكيف تُطمئن قلباً بعيداً عنها، ثمّ إنّ السمنة ابنة الشراهة والطمع، وهي أدعى للحذر والريبة وليس للاطمئنـــان والراحة.

ثمّ حملت زوجة الشهبندر في كفّها صدراً مقمراً وفي الكفّ الأخرى فخذاً محمرّاً و تابعت الكلام والالتهام حتى تكوّمت في حضنها مجزرة من العظام، ثمّ التفتت إلى أمّ الأحنف وسألتها:

فما هو الشيء الذي دفعكِ للاطمئنان من جهتي..؟

قالت أمّ الأحنف: السمنة تحول بينك وبين الحركة، وبذلك لا تستطيعين اختطاف ولدي الأحنف منّي.

فردّت زوجة الشهبندر: الاختطاف شأنٌ يخصّ ابنتي وهي في ذلك أقدرُ منّي .

فهل ابنتكِ على جمال حاد ووزن معتدل ؟ .

فقالت زوجة الشهبندر: يحار الناس والعارفون في ابنتي ووزنها وجمالها، فالراغبون فـــي ثـــروة والـــدها يغضون الطرف ويعتبرونها على فتنة ورهافة ويمتدحون حكمتها وعفّتها واتّساع ثيابها وثدييها، وليسوا في ذلك من

الملومين، وعندما يلمحهم والدها ويدرك أهدافهم يطردهم من أطراف القصر وجهاته وكأنّهم جيلٌ متأخّرٌ من الكتبة والفريسيين والتجّار المبتدئين.

فقالت أمّ الأحنف: أليس في كنفك وحوزتك ابنة أخرى لا يحار الناس فيها ولا يسيؤون فهمها حتى لا نقع في التجربة ونطرد خارج القصر كما طُردَ سوانا من الطامعين.

فقالت زوجة الشهبندر: كانت لنا في غابر الأيّام ابنةٌ على فتنةٍ ورشاقة وخطواتٍ سريعة، وقد أساءت فهم أول متسول طًرق بوابتنا، فهربتً معه وقد استحسن حسّاد والدها وخصومهُ أفعال ابنتنا الهاربة واعتبروها ابنة منزّهة بينها وبين البدانة والتجارة مسافة وارتياب .

- وأين هي الآن..؟

- بعدما تسرّبت من أصابعنا مثل الضوء، وعدّها الناس في النسوة المنزّهات.. صارت لها في نفوسهم مكانة توازي مكانة العدوية أو تزيد.

- وابنتكم الثانية..؟

- لم تستطع أن تتسرب، ولم تطاوعها على حملها قدماها، وكان لها نحونا و نحو مطبخنا حب شديد، وهي الآن في الغرفة القبلية تنتظر فرصتها.

فقالت أم الأحنف:

- أنا فرصتها، فادخليها إلي.

عندما دخلت ابنة الشهبندر.. حارت أم الأحنف فيها، وفي الجهة التي يمكنها أن تراها منها، لذلك حاولت أن تنهض رغم عكّازها لتدور حول البنت وتتجلّى هيئتها، غير أنّ أم الفتاة أوقفتها عن إتمام دورتها وقالت:

- الزواج عقد.. والعقود شأن يخصّ الرجال والأسواق، فأرسلي ولدك ليرانا ونراه، ونعقد لهُ ونعتقد فيه.

وهكذا خرجت أم الأحنف غائمةً وواجمة، وعندما وصلت إلى ولدها الأحنف.. سألها عن ابنة الشهبندر وجهاتها وملامحها فظلّت صامتة، وبعد لأي.. حاولت أن تستجمع ذكرياتها، ولكنّها لم تقدر. حاولت أن تقول شيئاً في مناقب البنت وملامحها ولكنّها لم تقدر. كأنّما لم تكن لابنة الشهبندر ملامح وجهات، يستطيع الناظر إليها أن ينظرها ويحفظها ويقول كلمة في صفاتها وكتلتها. وبعد صمت وانتظار من الأحنف، سُمِعَ من جهة الحديقة صوتُ ديك، فاستردّت الأم أنفاسها وقالت:

- لو أنّني في صباي. لطلبني الشهبندر للـــزواج دونَ سواي.. ولكنّني آيلة إلى زوال، لذلك طلبت زوجـــة الشهبندر حضورك بدلاً منّي، فالزواج كما قالت عقدٌ، والعقدُ شرعةُ الرجال والأسواق، فاذهب إلى الشهبندر وحاورهُ في الأمر ليعقد لك ويسلمك السدانة والخزانة والابنة الوحيدة والمُلك.

فسألَ الأحنف أمَّهُ مغتاظاً: وابنة الشهبندر هل هي جميلة..؟

قالت الأم: بسبب حفاوة زوجة الـــشهبندر وســـعة صدرها ومخاوفها.. لم أتمكّن من رؤية ابنتها.. التي ربما كانت على خفرٍ شديد وفتنةٍ عالية، غير أنّ القصر الواسع الذي يسكنون... له أفاريزٌ وأروقة وشـــرفات تـــضيع الملامح والطريق، ثمّ إن السعة تزيغ البصر، فتلتفـــت المرأة عن جمال الفتاة الواقفة قبالتها لتطلق نظراتها في الزخارف والرفارف والسجاجيد. وكأنّما أدرك الشهبندر طبائع الناس، فأمعن في تزيين قصره ليحرف أنظـــار الناس عن جمال ابنته.

قال الأحنف: أوَ يحرف الأنظار عن غياب جمالها..؟

فردّت الأم: غياب الجمال عن الفتاة، يعني أنّه كان حاضراً فيها، وهذا أمرٌ لا يستطيع أن يجزم فيه ســـوى

أهل الفتاة والراسخون في العلم. فالزم في هذا حدّك ولا تتقوّل على البنت، فأنا أكثر ميلاً للاعتقاد بأنّ الجمال مثل الضوء، يلتمع حيناً ثمّ يتوارى ويغيب.

- فهل أذهب إليها لأتبيّن وأثوب ؟.

قالت الأم: ليس لك والله إلا الصبر.. أو فلتحاول أن تترقب في نهارك وليلتك إشارة أو علامة تـزيّن لـك الذهاب إلى الشهبندر أو القعود في الحديقة وحولك خمسُ دجاجات بيض لا زيغ فيهنّ ولم يخالطهن سواد صريح.

- الذهاب إلى الهاوية، أحبُّ إليّ من القعـود فـي الحديقة.

ثمّ مضى الأحنف إلى الباب.

- فإلى أينَ وجهتك..؟

- إلى شهبندر التجّار .

حين اقترب موعد وصول الشهبندر إلى بيته، بذلت زوجته جهوداً كبيرة لتزحزح جسدها وتـنهض لتكـون متأهّبة للترحيب بزوجها، غير أنّ الكرسي الذي قعدت فيه نهض معها، وعلّق خلفها، فركضت ثلاث من الوصيفات إلى الكرسي وتعلّقن به وظللن معلّقات حتى هوت زوجة الشهبندر على الأرض.

وعندما دخل الشهبندر كانت الوصيفات في وضعٍ صعب، وكانت الزوجة ممدّدةً على الأرض عند ذلك ابتسم الشهبندر واعتبر سقوط زوجته من دلالات الفأل الحسن، وعندما عبر الصالة الرئيسية لحقت به الوصيفات وتركن جسد الزوجة للاحتمالات.. وبعد أن أتمّ الشهبندر طقوس جلوسه، دخلت زوجته إلى مجلسه مرحّبة ومبتسمة، وحدّثتهُ عن الخطيب الجديد وأمّه، وابنتها الوحيدة التي إذا لم تتمكّن من تصريفها ستقعد في وجه أهلها كما تقعد أمام التاجر بضاعة فاسدة، وأخبرت زوجها أن الشاب قد يحضر ويوافق.. فلا تتشدد معهُ في السعر والكلام كما تفعل مع طالب كفالة أو قرض. ثمّ التفتت إلى زوجها وقالت له:

- إحذر فالخسائر ستدقّ بابنا مثل ثور وأنا لا أقول ذلك لأوهنك، وإنّما أردّد حلماً شاهدته فيه وأوغلت فيه وهو أنّ شاباً أحنفَ الرجل، سيختطف ابنتنا. فلا تردّ الخاطب خائباً. وحاول أن تتصنّع أمامه العرج لتكون أقرب إلى نفسه وخطواته وما يرغب ويروم.

وكان شهبندر التجّار قاعداً في غرفته الزجاجية يدور حَول نفسه فتتوالد في الزجاج أخيلة وصناديق، وقد خطر بباله أن يداهم الزجاج ليحطّمه، ولكنّه لم يفعل فلقد كان

على قدر من الانضباط والتعقل، وفي حساب الزجـــاج والشظايا يختار الشهبندر الظلال الأليفة والخطو الثقيل، وفي ذروة مثل هذه، تصبح الأموال المكدّسة أكبر مكانةً وقداسةً من الكتب المقدّسة، ويعتري الشهبندر حذرٌ شديد، وهاهي الزوجة تتحدّث عن حلمٍ مملوءٍ بالنهايات الوشيكة وهجوم الثور الجامح العنيد.

صحيح أنّ الشهبندر رغم تهتّكهِ الواضح، وميلـــهِ المتفاقم لقرص الوصيفات من إلياتهن ونقاط عفـــافهن.. أمام زوجته السمينة دون أن يرفّ له جفن، غير أنّه في المسائل التي تتعلّق بابنتهِ يتوخّى أبلغ الحذر وأقـــساه، ويطلب منها الاختفاء خلفَ الثياب السميكة والأبـــواب المرتجّة حتى لا تصبح حديث الحارة والدكاكين، وبسبب تواريها الدائم أصبحت ابنة الشهبندر لغزاً، وحار فيهـــا الرجال والنساء وأصبح الحديث عن ملامحها وفتنتهـــا المتوارية يصيب شباب الحارة والطـــامحين بالإعيـــاء والتهيُّج.. وفي لقاء حميم صارح أحدُ التجّار البـــارزين صديقهُ شهبندر التجّار باللغط القوي حول ابنته وغيبتها عن الأنظار ردحاً من الزمان، فـقال له الشهبندر ملتاعاً:

- لو أنّ في بيتك ابنة لها بعض ما لدى ابنتي من المزايا لمنعتها عن الهواء الذي يصيب الجميع.

بعد ذلك أزِفَ الوقت، واقترب الأحنف من البوابة، فوجد اسمه معلّقاً عليها. عندها هرع الحراس والمرافقون إلى الشهبندر وأخبروه، فاقترب الرجل من العين الساحرة، وتأمّل وجه الأحنف وأطراف جبهته، وعندما لم يجد في الأحنف ثوراً يحاول المداهمة والانقضاض، ولم يجد له قروناً تفلُّ الحديد.. ضحك من خطل زوجته ونبوءتها المتعلّقة بهجوم الثور العنيد، وأمر التابعين المتأهّبين بفتح البوابة، واستبعاد فكرة إطلاق النار على الغرباء الطامعين.

وهكذا عبر الأحنف البوابة بسلام، واجتاز الحديقة والحراس المتأهبين، واجتاز الزوجة السمينة المتلفتة والوصيفات الواجمات. حتى وصل إلى الغرفة الزجاجية فعبرها قبل أن يتمكن أحد من القيام بفتح الباب.. وقد بوغت الشهبندر بالأحنف وتسرّبه المفاجئ من الزجاج وعدّ دخولهُ من المعجزات. وحدّثتهُ نفسه أن يلين معه في الكلام، فاقترب الشهبندر من الأحنف وقال له بصورة مباغتة:

- حدّثني عن نفسك وتجارتك.

فقال الأحنف للشهبندر:

- أبيع النساء بضائعَ تودي بالرجال.

فقال الشهبندر:

- فهل تتوخّى في تجارتك الصدق؟.. أم الربح؟..

فقال الأحنف: الصدق والربح تجارتان تكمّل إحداهما الأخرى.. وتنتقص إحداهما من قدر الأخرى.

فقال الشهبندر: تلك هي الحكمة التي تبرز موقعي ومكانتي في السوق فاتمم.

فقال الأحنف: **لم يعد لدي ما أفصح به وأُفصّل.. فحدّثني عن الذي يقلق بالك ويدفعك للتواري خلف الزجاج .**

فقال الشهبندر: لقد صنعت غرفتي الزجاجية وعزلتي.. لأحسّ بأنني داخل المكان وخارجه في آن، فالزجاج يسمح للأحلام والأموال بالدخول والخروج دون ارتياب، غير أن ما يشغل بالي هو الصناديق الكتيمة والأقفال، فحدّثني عن خزائنك، وكم يخرج منها ويدخلها من الأقوال والأموال..؟

فقال الأحنف: أمي خزانةُ أسراري ومستودعُ خسائري وأموالي، فلا تقاطعني كما تفعل أمي واتركني أحدثك عن الذي يشغلُ بالي من الصناديق والرجال.

فقال الشهبندر للأحنف:

تفضّل فوا لله لن أقاطعك، ولن أمنعك، فالـــصناديق مثل الناس، لكلٍ منها درجات ومحتويات ومفاتيح وأقفال، وربما كانت صناديقك عند الله، أعلى مرتبةً وشأناً ممـــا أعرف وأطيق من الناس والصناديق.

قال الأحنف وقد دارت به الأرض وامتلأت نفـــسهُ وصفاته بالوجد:

- الصناديق كيانات لها أحجام وصفات وحواف مملوءة بالألغاز.. وتتمدّد فيها سلعٌ مملوءةٌ بالروح والانتظار.. لذلك يتمُ التبادلُ والتشابه بين العناصـــرِ والـــصفاتِ والأشياء، وتصبحُ حمّالات الـــصدورِ علـــى نعومـــةٍ وبروزٍ، مثل الحلماتِ والنهودِ التي تحتويها، وتصبحُ القمصانُ الهفهافة رهيفةً مثلَ جلـــودِ الـــصبايا التـــي ترتديها، لذلك أحـــاولُ تعليـــقَ حمّـــالات الـــصدورِ، والقمصان الباذخة في الدكّان وجهات الحيطان، لأجدَها فجأةً وقد امتلأت بالهواءِ والنساءِ، عندَ ذلك كيـــفَ لا أميلُ على إحداهن، وأظلّ أميُل حتى أُصابَ بالحَنَفِ j والهذيان.

فتأمّل الشهبندر حكمة الأحنف وفطنتـــه وقـــرّر أن يحتمله، حتى لا يخرج عن وصايا زوجته وابنته التـــي قالت له في أحدِ الأيّـــــام:

- خذني يا أبي إلى مستودعك، لأكون بعض بضاعتك، وعندما تحين الساعة حاول بيعي بأرخصِ الأثمان.. لأتنسّم الحياة والجهات وملامح الرجال.

وحين علمت الابنة باقتراب قدوم الأحنف ليطلب يدها، مدّت إلى الباب يداها الاثنتان وقالت لوالدها الشهبندر:

- أريد الرجل حتى ولو كان أبا الهول.. أريده ولو كان بعده الموت، أريده ولو أطلق في وجهي أسئلة تزلزل النساء.

وبسبب الخفر الشديد الذي جبلت عليه ابنة الشهبندر خشيت أن تقول لوالدها، بأنّها لا تريد الرجل لشخصهِ وشعر جسده الكث، وإنّما تريدهُ ليطلق في ساعديها ونهودها وسرّتها ما تشاء من الأبناء، ليضطربوا في الأرض ويغمروها بالحروب والعقائد والصفقات.

ولو أن ابنة الشهبندر أفصحت عن حاجتها، لكبرت في عيني والدها ولذهب معها المذهب الذي ترتضيه، ولكنّها لم تفصح لذلك حصل ما حصل. واضطربت الأسماء والعلاقات، ثم التفت الشهبندر بغتةً إلى الأحنف وسألهُ:

---

(١) الأحنف: ذو العَرَجِ الخفيف.

- فأي الصناديق تختار..؟

فقال الأحنف: صندوق الاقتراع.

فسألهُ الشهبندر عن الأسباب، وهل يحب صـــندوق الاقتراع لذاته أم لما يحتويه من أرصدة مؤجلة وضجيج وأصوات، فقال الأحنف:

- لا أحبُّ صندوق الاقتراع لذاته وإنما لما يجاوره ويضطرب فيه من ستائر وأخطاء.

- فما الذي يجاور الصندوق ويضطرب فيه

فقال الأحنف:

- توجدُ قرب صندوق الاقتراع غرفة سريّة تمنح الرجل و المرأة الحقّ في الخلوة والاختيار.

فقال الشهبندر:

- الخلوة لا تكون إلا بعقد.

فقال الأحنف:

ولكنّهم في البلدان الأخرى، يؤجّلون العقدَ حتى نهاية الاقتراع، فامنحنا بعضَ التهاونِ الذي تمنحهُ للحكومات، وإذا أخذتكَ الريبة فينا مأخذاً، فليكن بيننا وبينك ســتارٌ شفيفٌ تخترقهُ أضعفُ التنهداتِ، وعندما يصللكَ منّا ما يوغرُ صدركَ تدخّل واقطع ما بيني و بين ابنتكَ مـــن

أواصرٍ وشهقات.. وعندما لا تقدرُ.. أعلن على الملأ أن الانتخابات قد زوّرت وتجاوز المقترعونَ الحدّ وأنّ الأبناء مؤهّلون للمقرعة، ولـــيس للاقتـــراع. وأنّ الـــصناديق المرتجّة، وليس الصناديق المفتوحة.. هي من يخرجهم من الدركِ.. ويضعهم في مواجهةِ الجدرانِ والأبواب.

عندماَ أصغى الشهبندر للأحنف، أحسّ بعمقِ حجّته ولؤم نظراته، فصاح في الزجاج.. فدخلت ابنته ملفعـــة ومرتجّة فتأمّلها الأحنف كما يتأمّل الراصد الفلكي ثقبـــاً أسودَ في الفضاء وقال:

- اللهم ابتليتني فلا تعرضني. كما تتعرض الكواكب الضالّة للالتهام.

وكاد أن يرتدّ على عقبيه.. فلا يكون له أثراً وظلال، ولكن الشهبندر انتبه إلى الأحنف وخلجاته وما يؤثر في نفسه وحركته، فاقترب منهُ وهمس له قائلاً:

- خذ فرصتك وامض مع بنتي إلى الغرفة السرية لتكون لكما خلوةً وتعارف، فلقد وقر في أبوتي وذهني اعتقاد طارئ، وهو أن الموت مع الخلوة، أفضل من الحياة مع الاستبداد.

عندما سمعت الإبنة المتوارية في الثياب.. كـــلام والدها الشهبندر، ركضت إليهِ وعانقتهُ وكادت أن تموت من الفرح بين يديه.

عند ذلك نظر الشهبندر إلى ابنته نظرة ملؤها المودة والاغتفار.. وقال للأحنف:

- خذها إلى الخلوة.. وامنحها من ما تشاء من المـــاء و الأسماء ولا تغرق وحدتها في التجاهل والدماء

ثمّ مضى الشهبندر في غير اتجاه. وهكذا أصبحت الغرفة الزجاجية. الخلوة والفضيحة فالزجـــاج يـــشي.. والزجاج ينم.. كأنّ عيون الخليقة معلّقةً بالزجاج لترى كلّ نأمة أو خفقة تصدر عن الجسد أو ترف إلى سواه، وكانت عيناً الأحنفً في الزجاج، وعينا الفتـــاة فـــي الأقمـــشة السميكة، ثمّ اقتربت الفتاة من الأحنف وقالت له:

- أغمض عينيك لأظهر لك. وعندما تصل إلى دلالات وجدي وتقلّبات زماني.. سأنضو عن جسدي ثيابي.. فإن لم تغمض. فلن تراني.

فتحيّر الأحنف من عمق الكلام وتـــداخل معانيـــه، وعندما أوغل فيه كادت أن تختطفه الأرض، فلا تكون لهُ مكانة وهيئة. عند ذلك.. نظر إلى الفتاة وقال:

- إنّني أُغمض.

ثمّ نضت ابنة الشهبندر ثيابها وأجلست الأحنف إليها وجلست إليه وقالت:

- هل تراني ..؟

فتعجّب الأحنف من كلام الفتاة وقال:

- كيف لي أن أفعل وأنا غير قادرٍ علــــى رؤيـــة نفسي..؟

فقالت له:

- هذا جوابٌ حسن.. لذلك سأحكي لك حكاية.

ثمّ كانت من ابنة الشهبندر برهة استجمعت فيها نفسها واضطراب كلماتها، وبدأت بسرد قصة الحسناء والوحش على مسامع الأحنف، ولم يكن ثمّة نافذة في الجوار ولا ديك ولا شهرزاد ولا شهريار.

وليس في دلالات الوحش يا سيدي، ما ينبئ على اسمه رغم ما شاع عنه في روح المــدائن والنـــاس. فانتفض الأحنف من هجعته وقال:

- لقد قرأت عن ذلك قـــــصـــصـــاً وشـــــاهـــــدت أفــــلامـــــــاً ومسلسلات، وكانت خطـــة المسلــسل والقصص والأفلام أن تقربنا من الوحش وتفتننا فيه فهل أنت على هذا القدر من الفتنة والجمال..؟

فقالت ابنة الشهبندر: لست أنا.. وإنّما الحكاية وأنت.

فقال لها الأحنف: أنت تزينين لي أن أغمض عيني دهراً .

- لستُ أطمع بالدهر، لأنّك إن أغمضت دهراً فلن تتذكر أيّامي.

- فكيف أراكِ إذن..؟

- عندما تنتهي الحكاية ستراني.

فقال الأحنف: لك ما تشائين.. فادخلي في الحكاية.

وكان صوت الفتاة على فتنة عميقة وأصداء ساحرة، تفتك بالأذن وتزين للسامع والمغمض أعذب الأخيلة، وأعجب الأفعال. وفي نقطة الحكاية وألِف أسرارها يا مولاي، أنّ الجمال لا يدرك إلا بعد إغضاء وتبصّر.. وعندما يكون ذلك يندحر القبح ويزول وتكتشف الحسناء ماهية الوحش ومعدنه فتنهض إليه لتعتنقه وتتماثل فيه، وحتى يكون ذلك يحار الناس أيّهما أكثرُ جملاً الوحشُ أم الحسناء.

والحيرة نقطة الضلال وألف الإيمان، وهي تؤلّف بين الشيء وضده حتى يكاد الرجل من وطأة إغماضه أن لا يبين.

عندما فتح الأحنف عينيه وجد ابنة الشهبندر وقد تكوّمت على جسدها وأسندت رأسها على ركبتيها وأخفت أطراف وجهها بين زنديها، فاقترب الأحنف منها وسألها

ثلاثاً أن ترفع رأسها ليراها، ولكنّها لم ترفع ولم تستجب.. عند ذلك تذكّر أمّه وصوت عكّازها فقال:

- ما دامت أمّي ستخطب لي فتيات بعدد الـــدجاجات.. فليس عليك يا ابنة الشهبندر جناح إن رفعتِ رأسكِ أم لم ترفعي .

وقد تمنّت ابنة الشهبندر في ســـرّها، أن يقتحمهـــا الأحنف، ويشدّها من شعرها وأطرافها ولكنّهُ لم يفعـــل. لذلك أدركتها أحزانٌ مباغتة.. فامتدّت يدها إلى الثـــوب الذي يجاورها وألقته على جسدها.. فغابت دون أن تترك في موضعها رفّة أو نأمة...

فتعجّب الأحنف من غيبتها وتحيّر في تفسيرها، وهل في دلالات الغيبة أن نكون إشهاراً للرفض، أم إقـــراراً بالموافقة.

وعندما تفعل ابنة الشهبندر ذلك، هل تكون فائقة الجمال أم لا تكون.. وهل بقدورها أن تكون الوحش، أم تكون الحسناء.

وبسبب الزجاج الشفيف والضوء الباهر، شعر الأحنف بالوحدة والبرد، فقرّر المغادرة وعندما اقترب من الزجاج اصطدم به ولم يتمكّن من التسرّب كما يفعل الضوء والكلمة الطيبة، عند ذلك أحسّ بالمعضلة، وأدرك أن ابنة الشهبندر قد

رفضته.. وقد أثّر رفضها على جلد الأحنف ونقلوته فأصبح متقرّحاً و كتيماً يعافه الزجاج ولا يمنحه فرصةً للتسرّب والهروب.

حين دخل الشهبندر، وشاهد الأحنف وحيداً، سألهُ عن الأسباب، وأين هي ابنته، عندها رفع الأحنف ذراعه إلى سماء الغرفة وقال:

- إنّها هناك . . هناك . .!!

ثمّ مضى إلى الباب وغاب.. ولكنّ الحرّاس لمحوا ظلاله فحالوا بينهُ وبين الهروب وحملوه وألقوا بهِ في الصحراء، وبعد لأيٍ استفاق من كدماته وقروحه، وعندما أحس بطراوة الرمل وتماثل ذرّاته وتطاول خطوطه وخطّته.. تقلّب فوقه ليكوي قروحه بحرارته. وكان الرمل نقياً حرّ الصفات لا تأتلف فيه حبتان حتى تعبر الريح لتفرط عقدهما.. لذلك أنهك الأحنف جسده و رؤياه علّه يلمح حبّة تشبهه ليأتلف معها وينفرط. غير أنّ الجهات المترامية.. حالت بينه وبين أي لقاء.. وحين تكون الصحراء. تصبح الأم ضرورة، وعندما لا تتبدّى له خطواتها وعكّازها. يرفع الأحنف رأسه إلى الجهات فتتبدّى له الحرائق في الآفاق مثل سراب باهر من الفتيات.. فينهض إلى الجهة التي يصدر عنها الدخان،

وعندما يصل يواجهه أفق من الأسلاك الشائكة وبراميلِ النفط التي حسِبها في أوّلِ السرابِ.. فتيات ناهدات.

أوّل الأمر يضطرب في فهم الأسلاك الشائكة وضرورتها في الصحراء، وعندما يتمكّن بعد جهد من القبض عليها تتندّى كفّاه بالدم،، فيغتبط ويشعر لوهلة في الزمان بأنّهُ ما زال حيّاً. فيصرخ في الجهات:

- الصحراء حرية، فتنةٌ مترامية من المعنى والضرورة، وهي صفراء مثل قارّةٍ من الذهب والأوراق الذابلة، وبسبب الصفرة الفارهة يحسُّ الناظر إليها بأنّ كلّ الفصول خريف.. رغم الحرارة اللاهبة، هكذا هكذا.. وإلا فلا.. حتى السماء تعكس على صفحة صفاتها وجفاف أحداقها أقاليم الصفرة وغاياتها، وبسبب ذلك تصبح لقطرات الدم المجتمعة في اليد فتنةٌ طاغية، كأنّ الفراغ المترامي من صفات الصحراء وخصالها، وهو مؤهّلٌ لابتلاع الألوان والحضارات جميعها، لذلك أصيب (نيتشه) بالرعدة.. ورفع سبّابتهُ المرتعشة من هول مرض الزهري القاتل ليقول.. (احذروا الصحراء) دون أن يلتفت لزارادشت الغارق بالحيرة والارتهان والأسئلة.

ثمّ اقترب من الأحنف رجالٌ مدجّجون، وليس في ملامحهم وعلى ألسنتهم خصال الصحراء وقداستها.. اقتربوا كثيراً واقتادوه دون أن يلتفتوا إلى الأسلاك التي أثرت في كفّيه وأغرقتهما بالدماء.

وعندما تمكّنوا منهُ.. أحضروا ترجماناً وقالوا له:

- أنت تتحرّك في المكان الخطر. ولو لم ننتبه إليك لصرتَ من الضحايا.. لقد أوقعت نفسك في المكان الذي ستقع فيه الحرب العالمية الثالثة، فمن أنت، ومن أحضرك ورسم لك ملامحك..؟

فقال الأحنف مضطرباً:

- اسألوا شهبندر التجّار وابنته، وإذا أعياكم الأمر اسألوا أمي وعكّازها فقد اعتدت في المحاولات السابقة أن يلقى بي قريباً من الحاويات غير أنّ شيئاً جديداً قد حصل، وتغيّرتِ الخطّة، وأُلقي بي قرب الجيوش المتحالفة، والأسلاك المترامية، وها أنا في أخر الزمان أتحوّل من طالب زواج وقرب.. إلى واحدٍ من ضحايا الحرب.. فهل عندكم فتاةٌ من القوات الدولية ترضى بي.. وتعيدني إلى الحارة والمصطبة والأم.

فتأمّل الرجال المدجّجون وجوه بعضهم.. ثمّ انخرطوا في طابور طويل من الضحك والخطوات المتماثلة وعندما تمّ لهم الأمرً التفت أعرض الرجال أكتافاً ونياشين وقد راقت له الحالة، فطلب إحضار فصيلٍ من الفتيات المنضويات في سلك القواتِ الدولية للمشاهدة.

حين أُحضرت الفتيات وقفنَ مشدودات القامة، صفراوات الشعر والسيقان مثل صحراء فاتنة.. وعندما لمحهن الأحنف ترنّح وكاد أن يقع في الصفرة الغامضة. ثمّ تقدّم القائد وقال للفتيات:

- سأطرح عليكن خياراً، بين هذا الرجل والحرب (وأشار للأحنف).. فمن تفضلهُ فلتتقدّم.

فلم تتقدّم أيّة فتاة، فأعاد القائد النداء مثنى وثلاث ورباع. عند ذلك تقدّمت واحدةٌ حلوة التقاطيع فارهة الساقين فاقترب الأحنف منها وتحسّسها وشعر نحو انضباطها بفرحة غامرة، ثمّ التفت إلى القائد وقال:

- لو كان بيدي هاتين، لما احتضنتُ سوى هذه الفتاة ولا رضيت غيرها زوجة لي، ولكّن أمّي مصرّةٌ أن تخطب لي خمسُ فتيات دفعةً واحدة حفاظاً على الوقت، وحقناً للدماء.

فاغتاظ القائد من الأحنف وأمّه، والتفت إلى فصيل الفتيات وأمرهن غاضباً بالانصراف. ثمّ صـــرخ فـــي الأحنف.. ورفع سُبّابتهُ نحوهُ بارتياب.. واتهمهُ وأمّـــه بالإرهاب.

وبعد مدّة لا يعرف أحدٌ مواقيتها وأسبابها عُـــصبت عينا الأحنف ٍوحُشر في سيّارةِ (لاندروفر) وأُلقيَ قـــربَ حاويةٍ بعيدةٍ للنفايات، وهناك كانت أمّه تستشرفُ الهواءَ والآفاقً، وعندما سقطَ ولدها قربَ رجلهـــا المتيبّـــسة، استدارت إليه وغمرتهُ بالعناق دون أن تلتفتَ للحاويـــةِ المجاورة وما تطلقهُ في الهواء من أبخرة وضلالات.

*　　*　　*

الليلة السادسة

عندما فكَّرِ الأحنف أن يخطبَ
لنفسه ابنةَ كبيرِ الزهّاد.

عندما صحا الأحنف من محنتهِ أمسكته أمّهُ من تلابيبه وسألتهُ عن الذي جرى وصار، فتأمّل الأحنف غضبها وقال:

ـــ لقد حصل ما حصل. ولستُ أسعى سوى لشيء واحد يشبه الغفران. فلقد صدّقت بعدما رأيت.. بأنّ الأمّهات أكثرُ ضرورةً من الحروب المحلّية.. وأكثرُ نقاءً من الرمل وأكثر هيمنةً من الاستبداد.

ثمّ نهض إليها ومضى معها بعيداً.. وفي الطريق سألها عن الديك.. فحدّثتهُ عن الدجاجات، فذهب ليتفقّدها، وعندما اطمأنّ إلى تمام العدد قال لأمّهِ:

- خذيني إلى الأئمة أرباب الطرق.. وفلاسفة الحيرة والزهد، ليفتوني في خطواتي ورؤياي فأنا عندما لا أنفع أن أكون زوجاً صالحاً، هل بوسعي أن أصير مريداً، كامل الولاء والارتهان للمشيئة والمشّاء.

فالتفتت الأمُّ إلى ولدها، وضربت صدرها بقبضتها وقالت:

- ما الذي فعلته بزمانك . . حتى تقول مثل هذا الكلام .. وما الذي ستصنعهُ عندما تقابل كبير الزّهّاد .

- سأسأله عن المرأة الصالحة والصحراء، وعندما آنَسُ منهُ ردّاً يخلّصني من البلبلة، سأخطب منهُ ابنته.

عند ذلك فهمت الأم أسباب ولدها، وعرفت بأنّه ما يزال ابناً صالحاً وليس العرج الخفيف من طبيعته وإنّما هو أمرٌ طارئ فيه، لذلك أنزلت قبضتها عن صـــدرها، وأرسلت دهشتها إلى مكانٍ بعيد وقالت لولدها الأحنف:

- اذهب لما ارتضيته واضطربت فيه ..وأنا لغيابك سأكون من الصابرات .

ثمّ أخرجت من بعض جهاتها مِقصّاً، وقصّت إحدى ذوائبها، وقدّمت الشعر المقصوص لوَلدها وقالت:

- عندما تعتريك مصيبةٌ بليغةويوهن صدرك كربٌ عظيم.. أحرق نهايات شعري هذه، فأكون إلى جوارك وأخلّصك مما أنت فيه.

فالتفت الأحنف إلى أمّهِ وقال مستغرباً:

- هل أنت من صنف الأمّهات أم من صنف الساحرات و الغولات في الحكايات..؟

فقالت الأم لولدها: عندما تنفق الأمُّ عدداً من السنين والحساب وتبلغ من العمر عتيّاً.. وليس لها سوى ولـــدٍ واحد.. يختلط عليها الأمر ويذوب الفرق بين الأمّهـــات والغولات.

ثُمّ التفتت عن ولدها ومضت وكأنّها خرجت مـــن كتاب.

وكان الأحنف في حالة إصغاء لخطواتها وظلّ على ذلك حتى غاب عنهُ صوت عكّازها، عند ذلـــك شـــعر بالوحدة واليتم، وبأنّهُ لن يرى أمّهُ ثانية، فكزّ بأسنانه على أصابعه كزّاً خفيفاً.. ثمّ قرر أن يحتفظ بذؤابات شعر أمّه. وعندما أدماه التذكّر والكز.. التفت عن نفسه ومضى إلى الجهة المعاكسة، وعندما لمح رجلاً عابراً ســـألهُ عـــن الطريق الموصلة إلى مجالس الأئمة فقال الرجل:

- الأئمة منحازون للطرق المتباينة، ولـــيس للطـــرق المحدّدة، وقد أصبح الوصول إليهم يتحقّقُ بالخطف.. ولا يتحقّقُ بالخطوات المتوالية.

فكبر الرجل في عيني الأحنف وظلّ يكبر.. حتى لم يعد بوسع الأحنف أن يراه ليرهقه بالأسئلة.

في نقطة التقاطع بين الدروب، التفت الأحنف عن الطرق المستقيمة واختار السير في الدروب المتعرّجةِ،

وهو رغم ضعفه وزوغان أمره وخطواته أحسّ بأنّ التعرّج أكثر كمالاً، وأعمقُ إيغالاً في الجروح والقروح والمعرفة، وعندما سمع هاتفاً يقول:

(حين تتفاقم الطرق وتتلوّى يصبحٍ السفر أكثر احتمالاً وجدوى، عند ذلك يصبح المريد إماماً ويتحوّل الإمام إلى مريد طامعٍ بالتقرّبِ وحسن البلاء) .

عندما ابتعد عن مقاصده ورؤياه، نظر الأحنف إلى خطٍّ في الأفق، وانحاز إليه حتى كاد أن يقع فيه، وفي نقطة الاتصال والانفصال بين السماء والأرض وبين الغيم والرمل، لمح فتاةً فائقةَ الخصال والشمائل والبريق، وعلى طرف فمها ابتسامة، وفي عينيها حَوَرٌ وسحرٌ مقيم، فتوقّف قربها وتبتّل، وصرف ناظريه إلى السماء وتأمّل. وكاد أن يسألها عن ثيابها الداخلية وما يلجمها ويصديها ويجعلها بهذا النقاء، غير أنّه خاف أن تفرّ من يديه وتتطاير بعيداً عن وجده ووحدته واضطراب كفّيه وحاجاته.. لذلك ظلّ صامتاً ومنصتاً لسلام روحها وخفوت أغنياتها ثمّ وبصورةٍ لا تطالها لمحةٌ ولا فهم، تقرّب منها وسألها من تكون، فقالت:

- المرأة لا تكون بذاتها. وإنّما بالرجل الذي ينفخ فيها من روحه، أو بالرجل الذي يعيد تشكيل فتنتها بعناقه.

- فمن هو الرجل الأول ..؟

قالت الفتاة: إنهُ أبي..!!

- ومن الثاني..؟

- إنّـــــــــــهُ حبيبي .

- فما هو اسمه، وأين يكون ..؟

- هو لما يزل فكرة، أو لمحة تزيّن للـــروح أن تخفق وتكون .

ثُمّ مال الزمان إلى غروب، وانسربت من الجهــات البعيدة ظلال حمراء، تورّد لها خدّ الحــسناء القريــب، وادلهمّ خدها البعيد، فالتفتت إلى الأحنف وقالت:

- فهل لك أن تبيت الليلة في حمانا..؟ كما يفعل الرجل الغريب.

فقـــــــال:

- كأنّما خلق الله الليل والنهار، والشروق والغروب، والرجال والنساء منذ القدم وحتى الآن لكي أنفق ليلتـــي فـــي حماكم.

- فهل تخامرك رغبة في اللقاء بأبي..؟

- أنا أكثر رغبة في اللقاء به، من لقائي بالجنة، فخذيني إليه.

عند ذلك تركت الفتاة متاعها واستبقته، فتبعها كأنّما سيطير، عندما وصل الأحنف إلى الزاوية البعيدة.. وجد فيها شيخاً طاعناً في الزمان.. يوشك بسبب وهنِ أيّامهِ ونظراته أن يذوب.. لو لم تحل بينه وبين ذلك شعرات ذقنه، وكان بين يديه وحوله رزقٌ كثير، كأنّما الطير والهوام والسبع والضبع من جلسائه، فاقترب منهُ الأحنف وحيّاه، فالتفت الشيخ إليه وردّ تحيته، واعتذر عن الرد عن أسئلته.

فقال الأحنف: لكنني لم أسأل..؟

فقال الشيخ: لقد فهمت قصدك وحاجتك من خطوات ابنتي خلفك .

فقال الأحنف: كيف ..؟

فقال الشيخ: الناس أسئلة ومقاصد، تفصح عنها الأرواح والمسام قبل الأصوات، ولأنك على جوعٍ كبير وصبرٍ قليل، لذلك تريّثت فيٍ فكّ طلسمك ودلالات قدومك فلي ابنةٌ تحتمل حبّاً عظيماً ولا تحتمل جوعاً عظيماً كالذي تحمل.

فقال الأحنف: قولك هذا من ضـــلالات الماضـــي وحيرته، والحبّ العظيم في أيّامنا لا يستطيع أن ينهض ويعيش إلا إلى جوار جوع عظيم، كأنّما خذلتك أيّامك، وأودى بك تفانيك، وعندما يكثر الرزق يترفع الناس عن الجوع، ويصبحون في اللذّة زاهدين، لو أنّك استفتيت فيّ ابنتك. جسدها وعناصرها وتوثّـــب نهــديها، وحرقـــة انتظارها، لرأيت فيّ وفيها شيئاً أكثر من الجوع وأنبل من الحب النزيه.

فانفعل الشيخ وتعــرّق، وأوصـــله الـــغــــضب الـــطــــارئ إلى بـــعـــضِ العافية، فقالَ للأحنف بصوتٍ عميق:

- هذا فراق بيني وبينك، فاذهب عن ثماري وضيق أيّامي.

فتحيّر الأحنف ولم يتحرّك، فقالت الابنة:

- الفراق هو الموت يا أبي، فترفّق، فليس أقرب إلى قلب الابنة من زندين قويتين وجوعٍ شديد.. ليس بالثمار والغلال تعيش الابنة وتتحرّك، وإنّما بالرجل الوحيد، فإن لم تَجُدِ الآفاق به فيكفينا منه بعض صفاته، لتضع الابنة على أطرافه رأسها وتستريح. فكن الأب يا أبي ولا تكن الوحش الذي يقتل الرجل الجميل.

فقال الأب: ها هو الوحش، وأنا لا أسعى سوى لتخليصك منه (وأشار إلى الأحنف).

فقالت الابنة: الوحش هو الفراغ الذي يملأ الأرض وهذا سيخلّصني منه (وأشارت إلى الأحنف) وليس في صدري وبريق وحدتي وبنوتي سوى أن أقول لك.. هذا فراق بيني وبينك (وأشارت إلى والدها في الركن البعيد).

ثم اقتربت من الأحنف وقالت له:

أنا لك منذ اللحظة، وأنا لعناقك وبنانك فافعل بي ما تريد.. فستجدني من الصابرات على اللثم والضم والوخز، حتى ولو كان شعر وجهك وجسدك أقسى من الحديد.

ثم ناولت الأحنف معصمها وقالت له:

- خذني إلى مكانٍ لا يعصمني منك.. واعصف بجسدي كما تعصف نسمة الحياة بجسد الطفل الوليد.

- فهل من مكان..؟

سألها الأحنف بولهٍ واحتدام.

فأخذته الابنة من يدهِ ومضت به إلى مكانٍ لا تطاله الأبوّة والنظرات المستريبة وقالت: أنا لك.

وانتظرت قليلاً لتسمع منه ــ معاذ الله ــ غير أنّ الأحنف لم يقل حرفاً ولم يمدد كفّاً.. كأنّ قوّةً عظيمة

تلجمه وتوهن قصده فاسترابت الابنة من صمته وخفوت همّته، وظنّت به الظنون، غير أنّها ما لبثت أن عرفت السبب، فمن كرامات الأب أن له تعويذة، تـؤثر فـي الحجارة وتلجم الغرائز وتحيل الرجل إلى هباء، فقالت في نفسها:

- لعلّ والدي أطلق تعويذته إلى جهة الرجل الذي مالت إليه نفسي فأثّرت به، ودفعته ليميل عنّي.. ولا يميل إليّ.

ثُمّ تركت الأحنف وهرعت إلى صومعة والـدها، وعندما لم تجد أمامه رزقاً كالذي كان.. عرفت أنّه أطلق تعويذته، فاقتربت من والدها وانحنت إلى قبضته وقبّلتها، وأطراف لحيته وسرحتها بأصابعها وصبغتها بالحناء.. ثُمّ رفعت عينين مخضلّتين إلى عينيه الرمداوين وقالت:

- خذ الحياة كلّها يا أبي.. واترك لي الرجل الغريب.

فاضطربت أنفاس الأب وتحرّكت تجاعيده ولواعجه، وتذكّر في محيّا ابنته الأبوة التي كانت له والشباب الذي فرّ عنه، فالتفت عن ابنته حتى لا يفتضح ماءٌ يغالبه، وبعد لأي.. التفت إليها وقال:

- اذهبي يا ابنتي كما تذهب الفتنة في الأرض وبين الناس.

ثمّ أغفى كأنّما لم تكن له ابنةٌ، كأنّما لم ينبث ولم يفسق ولم يرفث، وكأنّما لم تكن اللحية الطويلة له ولم تكن الحِنّاء.

وكانت الابنة تنهب الأرض، وفي نقطة المسافة بين الأب والرجل، وجدت نفسها بين مدٍّ وجذرٍ، وحنين وتجاذب، أين لروحها أن تمضي وأين لجسدها أن يكون.. غير أنّ الناظر في الرمل والعقائد، والمتبصر في المواجد والتوق.. يدرك أنّ الابنة أقرب إلى ذراعي الرجل الوحيد الواقف في منطقة الذهول. من الأب الآيل إلى أُفول.

حين وصلت.. كانت ذراعا الرجل لها كما تشاء ولصدرها كما ترغب أن تكون، ومثل أصابع لا تنام.. بدأ الأحنف بتفكيك الأواصر والأزرار، ليملأ العالم بالمرأة ويطلق الجنة في الجسد وكان في دأبِهِ أن يتملى ثيابها الداخلية ليعرف مصادرها وأصنافها ومن أي نوع تكون، غير أنّ ابنة الشيخ حالت بينه وبين جوعه ومعرفته وقالت له:

- أعظم التوق، تستره أخشن الثياب و الغلالات، ولأنني ابنة ناسكٍ، فليس من شيءٍ يمنعني عن الاتصال بالحضرة

والرجل، سوى خرقة سابغة من الصوف، تحف بـــي وتلهب صفاتي ومخيّلتي. فالثياب الخشنة تمنح المرأة التفتح والوصول، والثياب الناعمة توهن المرأة وتدفعها للذبول .

عندما فكّر الأحنف بالكلام ودلالاته، أصابته الرعدة، فبهت وغابت ألوانه، غير أنّ الجسد الذي التمعَ أمامـــه أعاده إلى توقه واضطرابه، ففتح فمه علـــى عواهنـــه وأوشك أن يقول. غير أنّ المرأة بادرته وقالت:

- في حضرة الله والجسد، تتطاير اللغة وتوشك أن تموت.

فما كان من الأحنف إلا أن صمت.. فجرّتهُ المرأة التي فتنتهُ وأمعنت فيه، وبالغت في الشدّ والجذب. حتى توارى الأحنف وتماثل.. ثمّ شفّ وضاع. وكانت الأرض والعناصر في حالة التياع. كـــأنَّ النأمـــة والرعـــشة و الاحتفاف، هما سرٌّ الأسرار ونقطة الليل وخطّة النهار. وقد سعى الأحنف إلى الضغط والضم والعصف، لتكون له الكلمة الفصل، كما هو دأب الرجال، وسعت الفتاة إلى المداورة والاختطاف.. كما هو دأب النساء في كلّ عناق. وكان الجسد فراشاً، والقبلات معاشاً، واللُهاث بداية القوة والخلق، فلو لم يكن صدرُ الأحنف صلداً ونابياً، لغاصت

فيه حلمتا الابنة ولو لم تكن أذناه كثّتين ومتجاهلتين لفتكت فيه صرخاتها، وقد حاول كلٌّ منهما أن يحتمي بالأظافر، ليرسم بها على ظهر حبيبهِ خطّة موتهِ وحياته ومصائر كلماته، فتشكّلت بقوة العناقَ، على ظهرَ كلٍّ منهما لوحةٌ مملوءةٌ بالخطوط والحروف والوجد، ثمّ تشكّلت تحت الأظافر خلائط عجيبة من القطرات والجلد.

ثمّ هبّت رياحٌ شديدة لتحول بينهما، فلم تقدر.. وأعادت الهبوب حتى بهتت وسفّت ولم يعد لها لون. وظلّت على ذلك حتى نهاية الزمان والتوق، ثمّ هطلت أمطار هائلة، فلم تزد في بللهما.. ولم تفلح في تفتيت أواصرهما. وبعد لأي اجتمعت قوى الطبيعة في قوّتين متنافرتين، وبدأتا الشدّ في جسديهما لتفلا منهما العناصر والحديد الذي يؤلّف الوجد، غير أنّهما لم تفلحا فعادت كلّ قوّة إلى مرقدها ونقطة خمودها ومورانها، وظلّ الجسدان في حالة من الالتحام لا يمكن وصفها، حتى أزفت الآزفة واقتربت أم الأحنف ورأت ما رأت وتذكّرت أَيّاماً كانت لها.. فما كان منها سوى أن صرخت في الجسدين صوتاً بالغ الحدة والأمومة فانفرط عقدهما وانسدل كلٌّ إلى جذع الشجرة التي وقفت إلى جواره لتزين له.. وعندما اقتربت أم الأحنف من العري الباهر لعناقهما وشقاقهما كادت أن

ترفع كفّيها إلى الله لتطلب لهما المغفرة، غير أنّها بدلت قصدها وصرخت صوتاً من قحف رأسها وتحدّثت عن محاولة اغتصاب تعرّض لها ولدها وبالغت الأم في الصراخ حتى ذبلَت الفتاة وتهافتت مواطن فتنتها، فنهضت إلى ثيابها، ومضت فتبعها الأحنف، فلم تلتفت إليه ولم تستجب لكلماته، ونظرت إليه كأنّما تنظر لرجل لا تعرفه، رجل لم تكن بينها وبينه مودّةً وعصف. وشهقات متوالية وعندما بالغ الأحنف في جذبها لتعود عن مقصدها.. انتهرته وقالت:

- لقد أوقعتني رموز أبي ودلالاته وغيبته في الارتياب، فتركته، فكيف تجرّأت أمّك على لهفتي وارتهاني.. واتهمتني بالاغتصاب والدم مني وليس منك.

وأشارت إلى نقاط متناثرة في الأرض، ثمّ التفتت عن والأحنف ومضت ًإلى نقطة اتصال السماء بالأرض وتهاوت.

بعد أن أتمّ الأحنف ذهوله، ولم تعد في الآفاق نقطة تشغله التفت إلى أمّه وقال لها:

- إنّها الخامسة، وقد فقدتها، ولعلّ الأرض لن تجود بأنثى مثلها.

فقالت الأم: لقد أتممت خطتي، وخطبتُ لك خمس فتيات بعدد الدجاجات.. لتكون لك في النساء حيرة

وتجاذب ومعرفة، وها أنا بعد الذي جــرى.. أتركــك لقصدك وعثراتك، فاتركني ولا **توهن طريقي ولا تلتفت للآفاق التي تغيبني. فالديك** والدجاجات الباقيات أكثر نفعاً منّي.

بين ذهولين وقف الأحنف. نقطة في الأفق غيّبــت حبيبته، ونقطة أخرى غيّبت أمّه، فهل بوسعه إذا أغلق فمه ودهشته أن يطلق ظنونه وخطّته وعندما يفعل.. هل بوسعه أن يتذكّر حنف رجله وميلها الشفيف الذي يشكّل عزلته.. غير أنّه عندما تقدّم إلى الجهة التي يحار فيها، شعر بأنّ ساقهُ المائلة استوت.. فأحسّ كأنّها ليست لــهُ فقال:

- عندما يألفُ الرجلُ الوعورة والدروب المتقاطعة.. تنهكه وتفتّ في عضده الطرقات المستوية.

ثمّ التقت عن نفسهِ ومضى إلى دكّانه ليستعيد مــن صناديقها.. ذكريات كانت له، غير أنَّ الأحنــف وقــد عاصر المرأة وارتهن لعذوبتها، تغيّر ولم تعد الثيــاب الرهيفة حاجته.. وإنّما ما يملأ الثياب من النساء. هكذا تتربع المرأة وترقى. عندما تقوّض مكانة امرأةٍ أخرى. لينهض الأحنف ويتخفف من شروط أمّــه وعزلتــه.. ويمضي للأبواب الغريبة الباقية ليوهن خشبها ويقوّض

عزلتها طرقاً وقرعاً.. غير أنّه ورغم ما تردّد في طول الحارة وعرضها من أصداء طرقاته فقد ظلّت الأبـــواب المتوالية في وجهه موصودة كأنّما لم تكن له فـــي أوّل الأيّام.. أمٌ ودكانٌ ومصطبة.

وقد توالت على الأبواب ضربات قبضته حتى لم يكن يسمع في الحارة وضيق نوافذها ما عداها من أصوات.

وعندما حلّ الليل. والوحدة العميقة والويل.. ذهـــب الأحنف للنوم فداهمته أحلام وأخيلةٌ.. لا فكاك منهـــا.. فنهض مذعوراً إلى قنّ الدجاجات البيض.. وفتح الباب ومدّ أصابعه الخمسة إلى غيبوبة الدجاجات وأعرافهـــا وحملها من أعناقها وعلّقها في الحديقة على حبل الغسيل فبدت للحاضر والغابر مثل رايات بيـــضاء تحـــاول أن ترفرف لتطير، ثمّ أحضر شكّيناً قاطعاً وبضربةٍ واحدة من السكّين أزال الأجساد عن الأعناق فتساقطت علـــى الأرض خمسُ دجاجات.

بعد أيّامٍ تذكّر الأحنف أجساد الدجاجات، فهرع إليها وحملها إلى المطبخ ليعدّها وليمة للعشاء وعندما قرّبها من أنفه أحسّ بأنّها آيلةٌ للفساد.. فحملها إلى باحة الحديقة واحتفرَ لها حفرةً وفي نيّته أن يدفنها بطريقةٍ طقوســيّة وعندما تذكّر فعلته تذكّر الديك، فهرع للبحـــث عنـــهُ،

وعندما لم يجده في مكان.. تذكّر الفتيات من الأولى إلى الخامسة وكيف افتتن فيهن جميعاً، وكيف دفعه رفضهن له.. لأن يُنزل القصاص بالدجاجات.

لذلك صاح من قلبٍ ملتاع.. يا أمّي.. ليت واحدة منهن ترضى بي، وعندما لم تستجب واحدةٌ للنداء، نذر الأحنف صوماً، تامّاً عن الكلام، لن يكلّم فيه أحداً حتى نفسه ثمّ قعد في الزاوية العميقة، وبدأ بالارتجاف.. وأقسم أن لن يغادر موقعه إلا لإزالة النفايات.. جارهُ الذي لم يكن منتبهاً لحضوره، أحسّ بغيبته.. فاقتحم عليه الباب وحاوره وداوره، وعندما لم يصل معه إلى جواب، قرّر أن يولم له فالطعام، يزيد الأواصر ويحرّك اللسان، فمضى الرجل من وقته وساعته، وطبخ له ديكاً ووضعه على زورقٍ مملوءٍ بالرز و الإدام.

وجلّله باللوز والصنوبر وعاجله بزخّاتٍ من التوابل والبهار، فعندما يعجز الديك عن الإغواء تتكفّل الرائحة بدفع الناس للمصارحة، وارتكاب الآثام.

عندما لمح الأحنف الديكَ اضطرب وحار، ونفرت من عينيه قطرتان فاستحلفه الجار أن يأكل.. فالتفت الأحنف إلى الديك وقال.. نحن في المحنة صنوان، ثمّ

مسح عينيه وصدره وكفّيه مثل مريد غائرٍ في التلاوة، وتابع الكلام وقال مخاطباً الديك:

- استضعفوك فطبخوك وأحضروك، ليتهم أحضروا لي خمسَ فتيات.

ثمّ انقضّا معاً على الديك.. وظلّا في حالة انقضاض حتى شفّت المواجد والجدران، وشعر كلّ واحد منهما أنّه قاعد مع صاحبته في العراء وأنّ الديك قد طار.

* * *

الليالي الأخيرة

حيث نجحت لمياء الأخمش ابنة صاحبِ الشرطة بالقصاصِ منَ الأحنف ...

في اليوم التالي.. دخلت الأم إلى ولدها فوجدته غارقاً في النوم كأنّما توحّد مع الديك الذي التهمه، فقعدت إلى جواره مترقّبة حتى استيقظ فعاجلته بالكلام:

- ما الذي فعلته بنفسِك ودنياك، لقد وصلني صوتك، وعرفت حاجتك ــ

فأحضرت لك الأولى، بعد أن ضاق عليها ما اشترته من دكّانك من ثياب .

فصاح الأحنف فرِحاً:

- إنّها لمياء الأخمش، كيف تمّ الأمر وحصلتِ منها على الرضا والإذعان.

فقالت الأم:

- بينك وبين الرضا مفاوز وشروط وغايات، فإن قبلت بالشروط، أحضرتها لك، وإن لم تقبل فتابع صومك ولا تغتب واحدةً من الفتيات.

فقال الأحنف: قبلت. أحضريها

فقـــالت الأم: إنّها بالباب

فقال الأحنف: وما هي شروطها..؟

قالت الأم: أن تحكي لها كلّ يومٍ حكاية.

فقال الأحنف: وكيف أفعل ذلك ولماذا..؟

فقالت لمياء بعد أن برزت للأحنف من خلف الباب:

- من أجل الإنصاف.. فعندما تنجح المرأة في سرد الحكايات كما فعلت شهرزاد ويفشل الرجـــــل في السرد.. عند ذلك تتضاءل منزلته ومخيّلته ويصبح من جملة الأشياء.. فهل تقبل؟

- أن أكون من جملة الأشياء.

- بل أن تحكي لي في كلّ يومٍ حكاية لأقتصّ بها مما فعلته بالنساء والدجاجات

- وإن قبلتُ وحكيت.

- أكون أحنُّ عليك من زمانك، وأطوع لك من بناتك، وأكثرُ إصغاءً لك من نفسك عندما تحدّثها بسرّك، وأظلّ على ذلك حتى تفرّقنـــا الحكايـــات الـــسيئة والعادات فماذا تقول..؟

- ذلك أمرٌ لم أعوّد عليه نفسي، إنّ للسرد فتنةٌ وأئمة وطرقاً وأخاف أن أكون دونها فينكشف أمري، ويفتر حبك نحوي.

فقالت: ما دمت قد اعتدت الخطابة على المصاطب والطرقات وأخلصت لها، وتحلّق الناس دونك وحولـــك، وتداول الرجال كلماتك كما تداولت النساء غلالات الثياب الرهيفة من دكّانك، فلا بدّ وأنّك قـــادرٌ علـــى حكايـــة الحكايات بحرارة والتياع فهلا حسمت أمرك وأشـــهرت للجسد أصابعك وللحكاية حنجرتك، فالمرأة تمل الخطابة وتُخلص للحكاية.

فقال الأحنف: الخطابة لعنةٌ، حكّة واخزة تـــصيب الحنجرة، فيبدأ الجسد بإفراز الخمائر والعصائر والكلمات، أمّا إطلاق الحكايات فشيٌ آخر، فنٌ عظيم لا تقدر عليه سوى شهرزاد، وأنا دون هذا الفن ودون طبيعته وأهدافه.

فقالت: إن كنت تريد امرأةً مثلي.. فحاول، وعندما تتمكّن وتستطيع، أرسل من يهتف لي.

ثم التفتت عنه لِتُعِدَّ نفسها للحزن والتواري فقال:

- ولكن الأمر يحتاج إلى زمان ودخان، وأنا غير قادرٍ عل الانتظار.

فقالت: أمّا أنا فقادرة ومولعة، فإن لم تفعل ذلك من أجلك.. فافعل ذلك من أجلي.

ثم انحرفت عن مسافة الرؤيا وغارت.. مثلما يلتمع الضوء ويغيب.

وقد حاول الأحنف أن يتبيّن الأمر، فسأل أمّه إن كان في حقيقةٍ أم حلم فقالت له:

- لم تكن في زمانك كلّه على حقيقة كما أنـــت الآن، فحاول ولا تتأخّر.

ثمّ غادرتِ المكان كأنّما لم تكن في برهةٍ أو زمان.

في وحدته واضطراب دنياه، قرّر الأحنف أن يخوض التجربة دون زيغٍ أو ميلان.. فنهض من وقته وساعته، ومضى إلى المكتبات وأحضر أمّهات الكتب ليستعين بها على غياب أمّه وغياب الفتاة التي يحب، وبدأ مع الأوراق المناجذه والشد وكأنّه في حربٍ. وعندما لم تنفعه أمّهات الكتب، مضى إلى قصص الأولاد والجدّات حتى أوصلته القراءة إلى ابن المقفّع وشهرزاد، فعبّ منهمـــا حتـــى تصاعدت من مساماته الذكريات والآهات.. وبعد تحيُّر وانتظار جاءته الحكاية. في هيئةٍ مغايرة، جاءتـــه فـــي صورةٍ لم تكن في الحسبان، مما دفعه لإغلاق كتاب ألف ليلة وليلة كما يغلق الحارس الأمين بوّابة قلعةٍ هائلة، أو

كما يغلِقُ الخارج من السجن إلى الحريـــة ألـــف بـــاب وسرداب، وقد تشكّلت في أفقِ عينيه ومخيّلته، غيومٌ من الأذكار والأفكار والقصص الجانحة، حـــاول أن يكتـــب بعضها فلم يقدر، غيوم حار فيها وفي دلالاتهـــا وثقـــل حمولتها، وهل ستفصح عن برقٍ خلّبٍ..أم ستمطر وعندما تبدّى لهُ وجهُ لمياء الأخمش في أفقِ ذكرياته قال فـــي نفسه:

- ربّما إذا حضرت واستلقت إلى جـــواري وتمطّـــت وتثاءبت، ربّما أتمكّن منها ومن الحكاية معاً، فينصفني زماني، فأذهب في القول أبعد مما أقدر وأحتمل.

وعندما صارح أمّهُ بتحوّلاته وتحوّلات الحكاية فيه.. إجابته إلى طلبه وذهبت مسرعة إلى لميـــاء الأخمـــش وأسرّت لها بأهداف ولدها ودعتها إلى التكتُّم في القول، والتهتّك في الألبسة. فولدها الأحنف، سليل جوعٍ عريق وعين زائغة وقد تقاطرت على دكانه و بضاعتهِ فتياتٌ راغبات فتفاقم جوعهُ وتراجعت فضائله،ثم قالـــت الأم لغريمتها حِكمَتها المتوارية:

- ليس الرجل بالنساء الكثيرات، وإنما بامرأة واحدة، فكوني هي.. أو فاغربي.

فقالت لمياء: يقف الرجل بين غروبين. .غروب أمه أو غروب زوجته، فلتحاول إحدانا أن تضيِّق المــسالكَ على الأخرى، فلقد قبلتُ التحدي.

ثمّ ذهبت لمياء إلى مرآتها، وخزائن فتنتها، فأخرجت من الثياب والعطور والدهون والألوان، وما يفتكُ بالرجال والألباب.. ويفتّتُ قلوب الأمّهات، وبعد أن أتّمت فروض زينتها التفتت إلى أمّ الأحنف وقالت لها:

- لن أُمكّن ابنك من نفسي، حتى أسمع من حكاياته ما يثلج صدري ويشعل حلمتاي ومخيلتي.. فعندما تسلم المرأة أمرها للحكاية تنسى الحذر وأقاويل الناس . ويبدأ جسدها بالتقرّب من أبطال الحكايات دون الانتباه إلـــى ميلانهم وجفاوتهم.. فاسبقيني إليه فلقد نسيت الطريق إلى سواه.

عندما دخلت الأمّ ومعها لمياء إلى مخدع الأحنف، كان محاطاً بالوسائد والأرائك والكتب، وانتبهت لمياء إلى صدر المكان فوجدته كأنّما أُعدّ لهـــا.. فمــضت إليـــه واستقلّت عليه بجسدها وصدرها، وهكذا نسي الأحنف أمّه وتتبّع لمياء وحركتها، ورغبة من الأم في التنبيه إلـــى مكانتها وسلطتها، وقفت في ضوء الباب.. وطلبت مـــن ولدها أن يحكي أوّل حكاياته لها، مما أوغر صدر ابنة

الأخمش فغطّت صدرها بطرف ردائها، ثمّ هرعت إلى البوابة هاربةً ولو لم تتعثّر بالباب ويعلق طرف ردائها فيه لما أدركها الأحنف ولما استطاع أن يحول بين الهــرب وبينها، وعندما تمكّنت قبضته من زنديها مالت إلى صدره كأنّما لتقع فيه، ثمّ ما لبثت أن ارتدت عنه ونظرت إلى وجه الأحنف وقالت:

- أنت تضغط بقوّةٍ علي، وأخاف أن لا أحتمل.

ثمّ تنهّدت بحنان وأشارت إلى زنديها فارتدّت أصابع الأحنف عنها بعد أن تركت عليهما حمرة زاهية.. حين أتمّ الأحنف انفصاله، قالت له ابنة الأخمش:

- ليس بيني وبينك دم أو نسب.. وأجد أنّ أمّك أجدر منّي بالإصغاء إلى حكاياتك .

ففهم الأحنف الإشارة، وجرّ ابنـــة الأخمـــش مـــن معصمها وقال:

- لم يخلق الله الأمّهات للإصغاء للحكايـــات والعبـــث بالعناصر فعودي إليّ.. فلن أحكي لسواكِ ليكون بيننا دمٌ وشهقات وأواصر.

فعادت لمياء، وتهادت ودخلت إلى مخدع الحكاية مثل أميرةٍ مضمّخة بالاشتياق والندى وعنـــدما لمحـــت الأم

دخولها وفتنتها وقطرات الخديعة التي ملأت أعطافهــا قالت:

ـــــ الباب الذي تدخله هذه . . لا أدخله أبداً.

ثمّ مضت من برهتها، وتركت في موضعها فراغاً لا تملأهُ امرأة سواها.. ولأنّ الأحنف لم يكن منتبهاً للفراغ الذي تركته أمّه وإنّما للفراغ الذي ملأته لمياء الأخمش، فقد عبر الفراغ وعثر وكاد أن يقـــع.. دون أن يعــرف السبب.

عندما أتمّت لمياء الأخمش استلقاءها في المخـــدع المُعدّ لها، بدرت من الأحنف التفاتة مباغتةً إلى صدرها فلمح الخطّ الفاصل بين نهديها، ولمح الغلالات الشفيفة التي تسترُ مخاوفها ورغباتها فقرّر أن الفرصة السانحة قد حانت وحان أوان الحكاية، فاقترب من لمياء وجلس إلى جوارها، والتفت عنها حتى لا تتشوّش حكايته بالنظر إليها وبدأ الكلام فقال:

- كان ياما كان، في قديم الزمان، ملكٌ معلّقٌ في الهواء، تدفعه الريح ذات اليمين وذات الشمال، وكان شعبهُ يبحث عنهُ فلا يراه وبعد أزمان ومحاولات تحققت المعجزة والتقى الشعب بالملك وفي أول لقاء به وعنـــدما تـــمّ الاجتماع، بدأ الملك الكلام والارتعاش، ثمّ حدّث شعبه عن

اقتراب موعد الزلزال وحكى لهم عن الأرض وما تمنحه للكائن من غربة وعدم اتزان، وكان بين الحاضـــرين امرأة، وعندما نظرت للملك قالت.. زوّجوه لتأمنوا شرّه ونوازعه، فليس سوى المرأة من يقهر الملوك، ويسمّرهم في الأرض. لتكفّ بعدها الأرض والأحلام عن الدوران وهكذا اجتمع مجلس الحكماء الذي شُكل على عجل وبدأ التفكير بتزويج الملك، حتى لا يعود لذكر الزلزال، وبعد بحثٍ أحضروا له امرأة طويلة مثله وحدّثوها عن فضائل البذلً ودوره في الدفاعٍ عن مستقبل البلاد وبأنّ الزواج من الملوك أهون شرّاً من اتهّام المرأة بالسحر والشعوذة، وإحراق جسدها في الساحة الرئيسية وتحويله إلى رماد، ففهمت المرأة الإشارة، ووافقت على الزواج من فورها وساعتها وفي ذهنها أن الملك كائن يشبه الملائكة ولا يشبه الرجالِ وبعد شدّ وجذب وقعت الواقعة وأنجبت الزوجة ابنةً رائعة وقد تحيّر الشعب، وتساءلوا كيف تمكّن الملك من المطارحة وهو بالغ الطول والذهول، وزوجته بالغة الاهتمام ببستاني القصر وزهوره العجيبة ودجاجاته التي تخلب العقول والألباب .

وقد رغب الملك كما يرغب جميع الملوك فـــي أن يكون له ولدٌ يرثُ ملكه، فحدّث زوجته في الأمر وظلّ يحدّثها حتى اقتنعت بالفكرة، فما كان منها سوى أن ذهبت

للبستاني وحدّثته بالفكرة فوعدها خيراً.. وهمس لها بأنّه سيكون على أحسن حال في موسم قطاف التفاح. ثم وفي غفلة من الأعين والأنظار حمل البستاني صرّته وهرب بعيداً عن القصر والحدائق وظلّ مبتعداً حتى التهمتـــه الصحراء.. وهكذا لعبت الظروف والمخاوف دوراً فـــي منع زوجة الملك من إنجاب وريث ذكر وظلّت للملك ابنته الوحيدة التي اسمها (روح الأزهار).

ثمّ وبصورة مباغتة تردّد في المكان صوت ديـــك، فتطايرت الحكاية ومضت إلى زوال وغصّت حنجــرة الأحنف بالكلمات، فَبَلَعَ وازدرد، ثم التفت إلـــى لميـــاء الأخمش المستلقية إلى جواره وقال لها:

- من الذي أحضر الديك..؟

فقالت: أنا..!!

فقـــال: لماذا ..؟ وبيني وبين الديك ما صنع الحداد.

فقالت: بين الديك والحكاية أواصر ووداد، وليس من ديدن الليل والنهار أن يفترقا عن بعضهما كما يفتـــرق الخيط الأبيض من الأسود دون ديك . وإن كنت علـــى ريبة فاسأل المولعين بالحكايات .

فقال لها: أليس من خيارٍ آخر..؟

فقالت: لا خيار .. والديك هو الحكم وصاحب الحدِّ القاطع بين الاتصال والانفصال فعندما أنتظرُ صوته بفارغ الصبر لتنتهي الحكاية .. تكون علاقتنا ماضية إلى زوال.. وعندما أتمنّى على الديك أن ينسى الصياح والصباح ــ لتمتدّ الحكاية .. فهذا دليلٌ على تعلّقي بك فأسهو عن أفعال يديك وعينيك، وأستسلم لك.

ثمّ تثاءبت وتشاغلت ونهضت إلى مخدعها تركت الأحنف في الوحدة والدوار.

وفي الليلة التالية أعدّ الأحنف للأمرِ عدته، وملأ حكايته بما هبّ وما دبّ من حوادث وأخيلة غريبة. وأعدّت لمياء الأخمش عدّتها، وأصعدت الديك ووضعته على الشباك وتمدّدت قرب الأحنف وقالت: **هات**..!

فتأمّلها وتحيّر وقال:

بلغني يا ذات الفتنة والوقار وسبب إلفة الحكاية وافتضاح الأسرار أنّ ابنة الملك التي اسمها (روح الأزهار) كبرت في غفلة عن الزمان والمكان بسبب اتساع القصر، وذبول الحديقة والأيّام .. وعندما صارت في مقام النساء مات والدها الملك، ولحقتهُ أمّها بعد مدّةٍ قصيرة بسبب الحب العنيف ونبوءة العرّافات، وظلّت

(روح الأزهار) وحيدة تهبّ إليها الريـــاح والأحـــزان. وظلّت على ذلك حتى اجتمع حكماء القصر، وقرّروا أمراً بهذا الشأن وكان قرارهم يتلخّص في أمرٍ واحد، وهـــو تزويج الأميرة روح الأزهار لتكمّل نـــصف طبيعتهـــا وتتوقّف في نومها عن التقلّب العنيف والأحلام، وعندما تتمكّن من ذلك، تصبح مؤهّلة أكثر من سواها لوراثـــة الملك والتحكّم بالحراس والناس.

عندما أخبرها الحكماء القرار.. فرحت به أيما فرح والتهبت مواجدها واحمرّ خدّاها فعرف الحكماء أنّ ذلك من علامات الخجل. والخجل شعبة من شعاب الظمـــأ، وعلى ذلك وضعوا خطة محكمة للبحث لها عـــن زوج، فأعلنوا في البلاد والأمصار وبين المواطنين و الأغيار أن الأميرة روح الأزهار تريد أن تكمل دينها ويقينهـــا وتتزوّج كما تتزوّج كل فتاة في كلّ زمانٍ ومكان، وعلى كلّ راغبٍ في هذا النوع من الزواج أن يتميّز بالـــصبر والهمّة والكفاءة، وتغليب العرف والعادة. وسيكون الناجح من المتقدمّين، من يقدر على الإجابة على سؤال يتعلّق بالليل والنهار تطرحه عليه الأميرة روح الأزهار. وقـــد ضرب للمسابقة موعد محدّد، يسمح للشبّان الراغبين.. بالاستعداد والتأهب لخوض التجربة. وبـــسبب كفـــاءة

المنادين وصلت الأخبار إلى أقصى الناس والديار، وفي الموعد المحدّد وقف الوزراء والحكمـــاء وقـــادة الجنـــد متأهّبين في الانتظار.

وفي اعتقادهم وبسبب الحملة الإعلامية الهائلة التي أقلقوا بها الناس والبلاد أن طابور الأمراء المتــسابقين سيتجاوز حدود القصر ويصل إلى أقصى الأرض.

أمّا طابور المتسابقين الراغبين في الزواج من أميرةٍ البلاد.. من أبناء الشعب وطبقاته المختلفة فسيكون أكثر طولاً من طابور الأمراء، وسيتجاوز حدود الأسوار ليصل إلى البحر.

وهكذا وقف الجميع منتظرين تـــشكّل الطـــابورين لمعرفة طولهما وكثافتهما وحماسة كل فرد فيهما. وقـــد غاب عن ذهن الحكماء المنظمين للمسابقةً، أن الـــدول والممالك المجاورة قد تحوّلت عن أنظمتهـــا الـــسابقة، واعتمدت طرائق الحكم المحدثة وأصـــبحت الممالـــك جمهوريات، وأصبح الملوك والأمراء أسماء تتغنّى بهـــا الملاحم والحكايات.. وهكذا عجز الأمـــراء الحـــضور لندرتهم وظلّ طابورهم فارغاً وحزيناً.. بعد أن عجـــز أصحابه عن التسرّب من الحكايات للوصول إلى المملكة لطلب يد الأميرة والاشتراك في المسابقة.

أمّا طابور المتسابقين من الجمهور وأبناء الشعب العــاديين، فقد ظلّ فارغاً أيضاً دون أسبابٍ موجبة أو مبرّرات.

الأميرة روح الأزهار التي تنتظر في قاعة العرش دخول المتسابقين أقلقها فراغ القاعة وسكون الهواء وتأخّر دخول الخُطّاب فقرعت جرس الإنذار فتقاطر الحكمــاء والوزراء وشكّلوا طابوراً ووقفوا بتوجس واضــطراب، وقد علّقوا أكفّهم خلفهم وحواجبهم أمامهم ووقفوا خلــف الباب، وعندما سمحت لهم بالدخول.. دخلــوا وظلّــوا صامتين.. فسألتهم عن أسباب تأخر الخُطّاب.. فتضاءل كبيرهم و تطامن صغيرهم وصارحوها بالحقيقة وبأنّهم يراقبون الآفاق.. بحثاً عن شاب راغب في الزواج.

فصرخت الأميرة في وجوههم قائلة:

- لكن لماذا؟.. وعلى أبواب الأميرات في الحكايات أعداد هائلة من الشبّان الخُطّاب.

ثمّ غار لون الأميرة روح الأزهار واضطربت كتلتها وركضت إلى غرفة نومها لتجهش بالبكاء وبعد مدّة من العزلة والاحتقان، طلبت أن يحــضر مجلــسها كبيــر الحكماء، وهو رجلٌ آيل للفناء، بينه وبين الحياة عــدّة زفرات.

والموت يا جميلتي يحرّر الرجال المــسنين مــن المخاوف، فيتحوّل الملوك إلى هباء.

عندما دخل كبير الحكماء إلى مخدع الأميرة، أذنت له بالجلوس، وقعدت إلى جواره واحتضنته بأبوّة وطلبت منه أن يقول لها الصدق ويصارحها بالحقائق والأسباب، ولماذا توقّف التنافس على بابها من الطامحين والخُطّاب، فقال الشيخ:

- ليست المعضلة فيك، ولا في طيبك ورائحتك، وإنّما المعضلة في الملك أبيك، فابحثي في الأمر لتعرفيه واتركيني لآخر لحظاتي وما نذرته من تهجّدٍ واستغفار.

ثمّ سقطَ كبير الحكماء من وقته ومات، ففزعت الأميرة روح الأزهار وقالت:

- كأنّني أطلب الموتَ ولا أطلب الزواج.

ثمّ طلبت من القوّالين والنحاة، أن يُحمل الحكيم ليُكفّنَ ويؤبّنَ وتُتلى عليه في مواكب جنازته أبلغ الكلمات، ولا بأس أن يدفن في الحديقة الملكية لتزهو أزهارها، ويزكو عطرها، فالحكمة وحدها تعرف مكانة التراب. ثمّ نهضت الأميرة من وقتها وساعتها.. فتنكّرت في زيّ شاب وطلبت أن تحذو حذوها أجمل الوصيفات، ثمّ! غادرتا القصر بسريّة تامّة، وفي قصد الأميرة أن تتعرّف إلى حياة الناس لتكتشف الحقائق والأسرار. فمضت مع وصيفتها إلى أحد خانات التجّار، واستأجرت غرفة في الخان، واختلطت بالناس وأصغت للكلام، وللهمسات وقد سمعت العجب العجاب. كان أبوها الملك يلقّبُ عند النلس

تارةً بالوحش وأخرى بالغول وذلك بسبب ما اقترفه من ظلم وعسفٍ إلى الحدّ الذي امتلأت فيه السجون عن آخرها بالكهولِ والشباب، وفي إحدى الجلسات، وقد لعبت الخمرة برؤوسِ الناس، تجرّأ أحدهم وسأل الأميرة روح الأزهار المتنكّرِة في زيّ رجل فقال:

- من أنت أيها الشاب وما هو قصدُك؟..

فقالت روح الأزهار:

- أنا أميرٌ قادمٌ من الصحراء، وقد سمعت عن عزم أميرة البِلاد على الزواج، ووِصلتني أخبارُ جمالها وفتنتها فقصدتُ هذه البلاد متنكّراً وعازماً على معرفة المملكة والأحوال.

- وبأيّ قصد..؟

- بقصد التقدّم للأميرة لخطبتها والزواج منها، وقد علمت من المَقربين والعارفين بأنّها أقامت مسابقةً بين خطّابها.. ولعلي أفوز في هذا النزال.

فقال الرجل:

- لقد انتهى أوان المسابقة، ومضت الأفراح إلى زوال ولم يتجرّأ أحدٌ من الناس على طلب يد الأميرة ليفوز باللقب الرفيع والأميرة الحسناء.

فقالت روح الأزهار:

- هل تعتقد بأنّها حسناء..؟

فقال الرجل: طبعاً..!!

- فلماذا لم يتقدّم أحدٌ لخطبتها من الشبّانٍ..؟
- بسبب الخوف، فوالدها الملك.. كان ملقّباً بالوحش.. وعندما يكون الوحش ماذا تنفع الحسناء.
- ولماذا أطلقوا عليه لقب الوحش..؟ والـوحش في إحدى الحكايات مملوءٌ بالطيبة وأحسن الصفات .
فقال الشاب :
- الأمر يحتاج إلى معرفة وتدبّر في طبيعة الوحش وماهيته ولعلّ السجون التي تشكل أفقاً للـبلاد تعـرف الجواب على السؤال.
ثمّ استدار الفتى عن الأميرة، وتابع معاقرة الخمـر والأحزان. فنهضت الأميرة من وقتها ومـضت إلـى القصر.. فحال بينها وبين دخولها أحدُ الحراس، وعندما حدّثته عن نفسها ومن تكون.. دفعها عن الباب وأغلظ لها في الكلام، فاضطرت الوصـيفة أن ترفـع عقيرتهـا بالولاويل والصراخ حتى انتبه قائد الحرس.. فتقدّم ليتبيّن الأسباب، ولو لم يكن قائد الحرس على نباهة واعتدال، لأمر بإبعاد الفتاتين في الحال، ولكنّه تأمّل وتذكّر، وسأل عن علامة مميزة تعارف عليها من في القصر، فقالت تلك وكشفت روح الأزهار عن صدرها فظهرت على طرف النهد شامةٌ في هيئة وردة، وعندما تأمّلها مليّاً قائد الحرس قال: يا سبحان الله..!

ثمّ أمر بإدخالها ومن معها بعد أن وعدته الوصيفة بـــأنّها لن تعود ثانية إلى الصراخ والولاويل وأقسمت من أجل أن يصدّقها أغلظ الأيمان.

ولو لم يسمح قائد الحرس بدخول الأميرة ووصيفتها، لضاعتا في الأرض، ولما انتبه لفتوتهما وجمالهما.. أحدٌ من النساء والرجال، ولانتهت الحكاية قرب الباب.. غير أنّ المقدّر حصل فدخلت الأميرة وذهبت مـــن وقتهـــا وساعتها إلى العرش وتشبّثت بهِ لتتأكّد بأنّها ما زالت هي أميرةَ البلاد.. وليست أميراً غَريباً عابراً في هدأة البال والخيال.. وبعد أن استعادت الأميرة نفسها وهدأتها طلبت اجتماعاً عاجلاً للحكماء والوزراء، وعندما تمّ الاجتمـــاع قالت الأميرة:

- بعد الذي جرى وصار قرّرتُ النزول إلى السجون والمعتقلات.. لأختار زوجي من بـــين الموقـــوفين والسجناء.

فدهش الجميع من غرابة القرار وقوته، وقد حـــاول بعض الحاضرين أن يثني الأميرة عن قرارها ويبصرها بالنتائج والأخطار، فما كان من الأميرة روح الأزهـــار سوى أن التفتت إلى الجميع وقالت، كما قال الرجل في الخان:

- عندما يكون الأب وحشاً .. فما الذي ينفع الابنة حتى ولو كانت أميرةً حسناء.

فصمت الجميع وخرّوا إلى الأرض حاسرين، كأنّما كشفت الأميرة برهتهم، وطبيعة ما يصدر عنهم من حكمةٍ بائدة وخواء.

وكانت لمياء الأخمش مستلقيةً على طرف الحكاية.. عينٌ على فم الأحنف وعينٌ على يده التي تعيث في الجسد وداداً.. عينٌ من الحيرة، وعينٌ منَ الانتباه والبصيرة، ثم وبلمحة نهض الأحنف وغاب تاركاً المرأة والديك مترقّبين حتى الليلة التالية.

في اليوم التالي دخل الأحنف، فوجد لمياء الأخمش مستلقية كأنّما لم تغادر موضعها، وساقها تشفّ مثلما تشفّ الأفكار الفاتنة من الحكاية المثيرة.. فعاجلها الأحنف بنظرةٍ سريعة ثمّ قعد وبدأ الحكاية دون روية ومقدّمات فقال:

- في اليوم التالي يا مولاتي ...

فاضطربت ملامح لمياء الأخمش وقالت في نفسها.. هل يخصّني بكلمة مولاتي أم يخصّ الأميرة روح الأزهار، ثمّ غيّرت في جهةِ استلقائها لتخفي اضطرابها وقد أحسّ الأحنف بما يخالجَها فعاجلها بالحكاية حتى لا تفضح النظرات الأسرار فقال:

- في صباح اليوم التالي نهضت الأميرة روح الأزهار، ولبست ثياباً تظهر فتنتها وطلبت من وصيفتها أن ترتدي ثياباً سابغة لتخفي جمالها.. حتى لا يحار

السجناء بينها وبين وصيفتها ويضطر بعضهم ليخطئ في الاختيار.

وحين تمّ لها الأمر، أخذت كوكبة مـــن الخـــصيان المدرّبين وألبستهم زيّ الحرس، ومضت بهم إلى السجن.. وعندما وصلت استقبلها عميد السجن بحفاوة واستغراب، وأدخلها إلى قاعة الشرف الكتيمة الجدران التي لا تصلها الأنّات والصرخات، ثمّ طلب مدير السجن من الجلادين والمعاونين أن يغيّروا في ملامحهم وكلامهم، ويذهبوا إلى السجناء ليرسموا على وجوههم الفرحة والابتـــسامات، ويضيفوا إلى وجوه بعضهم الآخر بعض لمسات الماكياج ليخفوا ما استوطن على الوجوه من جــراحٍ وكـــدمات، وهكذا تحولّت الأقبية المملوءة بالـــسجناء إلـــى خلايـــا عجيبة.. وتحوّل الحراس والجلادون إلى أخوةٍ فـــاتنين وبدأت كلماتهم تقطر بالعسل الدفين.

وفي قاعة الشرف في السجن، وخلال الأسئلة التي أطلقتها الأميرة والنظرات التي أطلقها عميـــد الـــسجن، اضطرّت روح الأزهار أن تخفـــي ســـاقها المكـــشوفة بوشاحها حتى لا يخطئ الرجل في فهمها، ثمّ أخبرته بأنّ ما يشغل بالها، هو السجناء ولـــيس الرجـــال الأحـــرار وأشارت إليه، فأغضى عميد السجن على حياء مريب ولا يغضي بمثله أحد من المساجين، ثم وبعد لأيٍ رفع عميد

السجن عينيه إلى مخطّط معلّق على الجدار وأوضح للأميرة أبنية السجن وأقسامه والسجناء ومراتبهم، ونصحها بعدم القيام بزيارة الزنازين بسبب جوع المساجين إلى النساء وقوّة نظراتهم وقلّة انضباطهم وحيائهم، ثمّ همس لها في غفلة عن نفسه ومنصبه فقال:

- المكان مريبٌ كلّه، وبسبب التجاور والتجاذب والتنافر تضيع الفروق بين السجناء والسجانين، ويحار العارفون من الخلق أيهم يقف أمام القضبان و أيُّهم يقف خلفها.

ثم ابتسم، فاستكانت له الأميرة واطمأنّت وسألته عن أكثر السجناء إلفةً وتقبّلا لفكرة الزواج من أميرة البلاد، فقال عميد السجن:

- هذا سرٌّ لا يعلمه إلا الله، ولكنّني أنصح بالسجناء الذين لا تتجاوز محكومياتهم الخمس سنوات، فهم أبعد عن القتل وأكثر ابتعاداً عن السياسة .

فقالت الأميرة:

فاذهب وأحضر لي منهم من لم يتزوّج، وما زال باقياً على قيد الحياة.

قبل دخول عميد السجن إلى القاووش، كان السجناء في حالة ابتهال للضوء الحر المنساب من قضبان نوافذهم، وكانت ركبهم تلامس الأرض وأكفّهم تلامس الضوء كأنّما لتسأله أن يظلّ إلى جوارهم، وبسبب الدخول

المفاجئ لعميد السجن، اضطرب المشهد وهرب الضوء وتشعّث السجناء، ثم وبحركة سريعة من يده.. قام بعزلٍ السجناء عن بعضهم وتقسيمهم إلى فريقين، واقتاد فريقاً منهم وترك الآخر في الزنزانة.. وهكذا حار الفريقان في مصيرهما.. ولم يعد أحدهما يعرف إن كان ذاهباً للموت أو للحياة.

عندما دخل المساجين إلى غرفة الشرف، وشاهدوا الأميرة روح الأزهار ولمحوا أطراف فتنتها تفتّحت أعمارهم وعناصرهم وحاولوا أن يعبّوا من صورتها أخيلةً تعينهم في ليالي السجن و السهاد، وبعد أن أتمّوا لهفتهم قال لهم عميد السجن:

- هذه هي الأميرة روح الأزهار، وقد أحبّت أن تلتقي بكم.

عندما سمع السجناء اسم الأميرة ومنصبها تهدّلت أعمارهم وعناصرهم وامتلأت نظراتهم بالزيغ والاضطراب وحاورا في الصور التي سكنت ذكرياتهم، هل يبقوها أم يلقوا بها إلى النسيان حتى لا يفضحهم العسس وحرّاس الأفكار.

وكأن الأميرة روح الأزهار قد لمحت ما يشتتهم، ويزيد في اضطرابهم، لذلك دفعت الوشاح عن طرف ساقها وقالت لهم:

- لم أحضر إليكم لأزيد في محنتكم، وإنّما حضرت لأختار منكم زوجاً لي، تقر به عيني، فمن يرغب منكم بهذا الزواج فليتقدّم..

فهرع الجميع إليها كما يهرع السجناء إلى الحرية، وكادوا بسبب اندفاعهم العنيف نحوها أن يلصقوها بالجدار، لو لم يصرخ فيهم كبير السجّانين صوتاً عنيفاً يردّهم إلى مكانهم السحيق خلف القضبان، لصارت الأميرة روح الأزهار في خبر كان.

بعد أن استعادت روح الأزهار بعض يقظتها وألوانها، طلبت من عميد السجن أن يحضر لها السجناء بعد أن يعيدهم إلى برهة التفتح والهيام لتتقرّب إليهم وتعاود منهم الاختيار، فهرع الرجل واستعاد السجناء وأوقفهم أمامها فلم تتعرّف إليهم، كأنّ عميد السجن استبدلهم برجال أغيار، ثمّ رفعت رأسها إلى مدير السجن لتسأله فأجابها:

- إنّهم هم لم يطرأ عليهم تغيّرٌ أو تبديل .. لكن المسافة الهائلة بين قاعة الشرف وزنازين السجناء تخطف الأبصار وتصنع الفروق بين الأموات والأحياء .

فالتفتت الأميرة إلى عميد السجن وطلبت منهُ أن يصمت بعد أن عرفت مقدار ما في كلامه من حكمة وقضبان.

فصمت عميد السجن. وصمت السجناء، وصمتت العصافير في الباحة الخلفية وصمتت الحيتان في البحار البعيدة، بعد أن أخرج كل حوت ذيله من الماء ليرشق به الزمان والهواء.

وقد رغبت الأميرة أن تتودّد للسجناء لتقرّبهم من نفسها وجنسها بعد أن تطرد من خلاياهم الخوف السحيق، وتجعلهم يفهمون ويقدرون على السؤال والجواب.

فقالت لهم:

- إنّي سائلتكم سؤالاً، إن عرفه واحد منكم كان لي زوجاً، وإن عرفه أكثر من واحد طرحت على الفائزين أسئلةً أخرى متوالية . لأختار الفائز وأبدأ مراسيم الزواج، وأنا أستحلفكم بالله والأيّام السابقة والقضبان وأن يكون الفائز واحداً فقط ومن الجولة الأولى.. لأنني نسيت إحضار بقية الأسئلة.. فهل أنتم موافقون..؟

فهزّ الجميع رؤوسهم علامة على الهيام والإذعان، فقالت لهم:

- لسؤالي جوابان.. جوابٌ قريب وجوابٌ بعيد المنال، وأريد الجواب البعيد ليكتمل بيني وبين صاحبه الشوق وأنفق أيّامي معه على أحسن حال، فهل أنتم مستعدّون.

فوقف الجميع باستعداد، فقالت الأميرة:

- ما هو الشيء الذي يفصل بين الليل والنهار..؟

ففكّر الجميع قليلاً، ثم تعالت الأصوات، فقال الأوّل: الفجر يفصل بين الليل والنهار.

وقال الثاني: الشمس تفصل.

وقـــال سابع: الأفق يفصل.

وقـــال تاسع: الجريمة تفصل.

وقال عاشر: إشارة من عميد السجن.. تفصل بين الليل والنهار.

هكذا تردّدت الإجابات وتعدّدت، ثم صمت الجميع بعد أن أعياهم الكلام والانتباه.

بعد أن أصغت عميقاً وطويلاً رفعت روح الأزهار إلى الجميع عينين مخضلّتين بالدهشة والامتنان وقالت:

- أجوبتكم عميقةٌ وصائبة وبعيدة وقريبة، غير أنّني أبتغي إجابةً أخرى، تقرّ بها عين الحكاية فهل من مجيب.

ثمّ تفرّست في الجميع لتسمع جواباً.. وعندما لم تسمعٍ انتبهت إلى أحد السجناء الوقفين في الوصيد، وكان صامتاً ومتجاهلاً كأنّما الزمان لا يعنيه.. فأشارت إليه وقالت:

- هل لديك جواب..؟

فقال: نعم!!

فقالت: هـــات..

فقال: إنّهُ الديك .. وهو يفصل بين الليل والنهار كما يفصل السجن بين الله والناس.

عند ذلك التمع من النافذة البعيدة صوت ديــك.. فنهــضت لمياء الأخمش إلى الصوت غاضبةً.. وصاحت في الديك:

اصمت يا ابن الحرام، أنت لا تفصل بــين الليــل والنهار فقط وإنّما تفصل بين المحبّين.

فصمت الديـــك وامتثل، وعندما رجعــت ابنــة الأخمش إلى مكانتها.. كان الأحنف قد غاب فاضطربت وأجشهت.. ثمّ تمدّدت وبدأت تتقلّب على جمر الانتظار.

وفي الليلة التالية، دخل الأحنف فرأى لمياء، ممدّدة وكانت مخضلةً وواهنة ويشعُّ منها ضوءٌ غريب، فاطمأنّ، وبدأ الكلام فقال:

بلغني أنّ الأميرة روح الأزهار عندما سمعت الجواب من الرجل الأخير، وهو يتحدّث عن الديك، والسجن والليل والنهار، ركضت إليه بانفعال وعانقته حتـــى أوهنــت صدره، وقالت له: ذلك هو الجواب الذي يزين لي العيش والانتظار، فأنت منذ اللحظة زوجي بشرع الله فلا تتركني لسجينٍ آخر سواك.

ثمَّ تأبّطته وخرجا معاً، يحف بهما السجن وصرخات السجناء.

وقد حصل ذلك بغتةً، دونَ أن تنتبه الأميــرة روح الأزهار إلى ساق الرجل وما فيها من حنفٍ ومــيلان.

ولكنّ الوصيفة انتبهت.. وهمست للأميرة، فقالت لها الأميرة بعد أن وصلتا إلى القصر:

- لعلّ قدمهُ الحنفاء تحول بينه وبين الإسراع إلى مخادع النساء ليخون زوجته، ولعلّه لو لم يكن أحنفاً.. لوددته أم يكون. فصمتت الوصيفة، وظلّت على صمتها حتى أقيمت الأفراح والليالي الملاح، وتمّ زواج الأميرة روح الأزهارٍ من السجين السابق الذي أطلق عليه اسم (أوّل النهار) بدلاً من اسم (حسّان الأحوط) وذلك ليتناسب الاسم الجديد مع المقام الرفيع الذي صار إليه الرجل .

بعد أسبوع من الزواج والهيام والمطارحة، وقف الحكماء والوزراء بباب الأميرة وطلبوا منها أن تتعطّف وتتكرّم وتوافق على أن تصير ملكة على البلاد والعباد، حتى لا يكون خللٌ دستوري، يطمع الأعداء والمتآمرين. فوفقت الأميرة روح الأزهار على الطلب.. فانطلق الجميعُ للإعداد للمناسبة، وأقيمت الأفراح والليالي الملاح وفي غمرة ذلك نسيت الأميرة روح الأزهار أن تصدر فرماناً بالعفو عن السجناء، لأنّها كانت منشغلة بزوجها «أوّل النهار» وزادت مشاغلها عندما أُعلن في البلاد عن موعد تتويجها لتصبح ملكة، وفي حفل التتويج التفتت روح الأزهار إلى أوّل النهار وقالت له: لم أكن أريد لحفل التتويج أن يشغلني عنك.

فقال لها أوّل النهار: لقد خبرت الأسوار والقضبان والأبراج ولم أجد في الحياة أقسى من التاج (ثمّ صمت قليلاً) ولم أجد شيئاً أجمل منه.

فمل كان من روح الأزهار سوى أن حملت التاج وقرّبته من أوّل النهار وقالت: هل تجرّبه؟

فصاح مرتعداً: لا..

ثم نهض بخفّة وغادر قاعة العرش، فاضطرت روح الأزهار أن تتم الاحتفال بتتويجها دون أو يكون أوّل النهار إلى جوارها. وقد بدأ أول النهار يحسّ بالمعضلة كأنّما بين القصر الذي هو فيه والسجن الذي كان فيه مسافة هائلة من سوء الفهم.. يعزّزها التاج ولا يزيلها.

- السجنُ منشغلٌ برأسِ الكائن وما يعتمل فيه من أخيلةٍ وآراء والقصر منشغلٌ بالتاج وبما يدفع رؤوس الناسِ للانحناء.

بعد انتهاء الحفل، حاولت روح الأزهار أن تتنسى وتغتفرٍ لأول النهار ما فعل، وحاول أول النهار أن يعتذر متعلّلاً بصداع يفلق الحديد أصابهُ فجأة، وقد أدّى ذلك لزوال الغمامة، والعودة إلى أقانيم الحب والعناق.

وكان أول النهار يحاول عندما تكون روح الأزهار في حالة الحب الحميم أن يذكّرها بضرورة العفو عن المساجين، وكانت تنسى ولم يكن أول النهار يدرك بأنّ المرأة تكون بلا ذاكرة في مثل هذه الحالات، ثم وفي إحدى المرّات وبينما كانت روح الأزهار تمشي إلى جوار

أول النهار في الحديقة، انتبه أول النهار إلى شيء فالتفت إلى روح الأزهار وقال:

هل يعقل أن تكون حديقة القصر على هذه الفتنة والاتسّاع، ولا يكون فيها ديكٌ وخمسُ دجاجات.

فقالت روح الأزهار: ولماذا الديك والخمسُ دجاجات..؟

فقال: الديك أول النهار، والدجاجات الخمس، لما يلي ذلك من أحداث.

فالتبس الأمر على روح الأزهار، وقالت: لقد شغلتني فأوضح.

فقال: الديك في الحديقة يغري الرجل، ويزين له. فيهرع إلى زوجته، وتكون بينهما مودّة ورحمة وعناق.

فما كان من روح الأزهار سوى أن أصدرت فرماناً يوصي بإحضار ديكٍ وخمس دجاجات وإطلاقهم في الحديقة والشرّفات.

بعد انقضاء مدّة على الزواج وبينما الملكة روح الأزهار تتحادث مع وصيفتها (صون الأسرار) عن الرجال سألت وصيفتها إن كان الذي بينها وبين زوجها من تجاذب ومطارحة، يعتبر حبَّاً أو هو نوعٌ من عقود التراضي والإذعان وخصوصاً عندما يكون الزوج قد أمضى مدّة من حياته خلف القضبان، فقالت لها صون الأسرار:

- لست أرجم بالغيب، ولا أعــرف المخبــوء خلــف الأستار.. ولعلنا نحن الوصيفات رغم غياب القضبان أكثر شبهاً بالسجينات.

فقالت روح الأزهار:

- وهل تعجز الوصيفات عن الود، ويعجز السجناء عن الحب إذا تزوّجوا من الملكات.

فقالت صون الأسرار:

- الحب والخوف يا مولاتي لا يجتمعان.

فقالت لها روح الأزهار:

- أريد أن أدخل معك في رهانٍ لأعلم علمَ اليقين، إن كان أول النهار يحبّني حبّاً صادقاً، أم يخافني خوفاً صادقاً يدفعه للتظاهر بالحبّ والحنان.

فقالت لها الوصيفة:

- موافقة على الرهان، فما هي الطريقة..؟

فقالت روح الأزهار:

- تتظاهرين أمام أول النهار بالحب والهيام، وفي ساعة معلومة، تأخذينه إلى المخدع حيث أكون متوارية خف الأستار، وهناك تغوينه وتزيّنين له حتى يستسلم لك ويهمّ بك، وعندما تحين لحظة الالتحام تصرخين كما يصرخ الديك، فأخرجِ إليك وِتُفتَضَحُ الأسرار وأقبض على أول النهار متلبّساً وعارياً في آنٍ.

فقالت الوصيفة: وإذا أبى وتمنّع.. وشتمني بأقذع الألفاظ، ثمّ هرب عنّي قبل أن أغويه وأوقع به.

فقالت روح الأزهار:

- عند ذلك أكون قد كسبت الرجل والرهان.

وهكذا تواعدتا، وتعاهدتا وبدأت صون الأسرار بحياكة خطتها خيطاً خيطاً وسرّاً سرّاً، وبعد جهود و لواعج تمكّنت الوصيفة من إغواء أول النهار وإحضاره إلى مخدعها بعد أن حلفت له وألحّت عليه، وهناك بدأت بتقويضه وتفويت الفرصة عليه وظلّت تجاذبه وتغالبه، حتى كان لجسدها الغلبة فارتمى أول النهار على فتنة الوصيفة ودفء أعطافها، وبعد التحام وتجاذب وانفصال، حانت البرهة، وامتلأت القاعة بالشهقات عند ذلك خرجت الملكة غاضبة من خلف الستار وصاحت في الوصيفة لماذا خرجت على الاتفاق ولم تصرخي. قبل أن يكون الجذب والعناق والاحتدام.

فقالت الوصيفة:

- كنت مشغولة البال بأشياء أهمّ من الصراخ.

فقالت الملكة : إنّها الخيانة إذن..

فقالت الوصيفة: إنّها الخيانة، ثمّ إنّ الله لم يخلق الوصيفات والدجاجات ليقمن بالصراخ في لحظات الألفة والشهقات.

فقالت الملكة : فمن الذي يصرخ إذن..؟

فقالت الوصيفة: الديكة والرجال..
فقالت الملكة : ومن الذي يخون..؟
فقالت الوصيفة: الديكة والرجال.

عند ذلك التفتت روح الأزهار مخضلّة بالأحزان إلى أول النهار وقالت له:

- من الذي يخون إذن يا أول النهار؟..

فقال أول النهار: الرجال عندما يصيرون ملوكاً أو سجّانين.

فقالت الملكة: فما الذي تختار يا أول النهار، الموت أم السجن..؟

فقال أول النهار: أختـــــار المـــــوت..!

فقالت الملكة : ليس في نيتي أن أدفع بك للموت، لتكون الضحية وأكون الوحش.

ثمّ أشارت إلى الحرّاس فاقتادوه مكّبلاً، وفي لحظة غروبه عن عينيها، التمع وجهها بالحزن والمرارة.

بعد ذلك صاح الديك، وانتشرت تباشير الـــصباح، والحزن على عيني لمياء الأخمش لاح.. فنهضت إلـــى الشبّاك وتأمّلت الديك وظلّت تتأمّله، حتى نهض الأحنف إلى الكتاب وغاب.

وفي الليلة التالية، خرج الأحنف من الكتاب واقترب من لمياء الأخمش بولَهٍ واضطراب وانحنى على كفّهـــا

ولامس أصابعها وفتح الكفّ وقرأ الخطوط فيه، فارتعد ونهض، ثم بدأ الـــــحكاية فقــــال:

بلغني أيتها القريبة البعيدة . . يا ذات الحسن الفريد والساق الفريدة أن الملكة روح الأزهار قرّرت الـــذهاب إلى السجن لاختيار عريس آخر . وبعد حوار مع عميد السجن قرّرت أن يكون زوجها من السجناء المحكومين عشر سنوات والعشر أكبر من الخمس، وهـــي تـــوهن الرجل وتدفعه للألفة ولا تحضّه على الخيانة . هكـــذا خمّنت، وعندما أحضروا السجناء إلى مجلسها، سألتهم عن الخيانة والإخلاص .. فصمتوا . . فتأمّلتهم ثم قالت:

ـــــ من منكم يرضى الزواج بي..؟

فرفع الجميع أكفّهم فتابعت الملكة فقالت: فمن منكم يعاهدني على الإخلاص في الزواجٍ؟..

فأنزل الجميع أكفّهم إلا واحداً، فقبلته الملكة زوجـــاً وأعرست له، وأسمته (أول الليل) وبعد أيام من الإلفـــة والوداد، أحضرت الملكة وصيفتها صـــون الأســـرار، وحدّثتها عن الرهان السابق وبأنّها ما تزال راغبةً فـــي المتابعة ولو بألف زوج، حتى تتمكّن من واحـــد مـــنهم لتوقعه في الفضيلة والعفاف وتبعده عن الرذيلة والخيانة. ثمّ ألحّت على وصيفتها لتكون حاضرة الـــذهن لحظـــة العناق، لتتمكّن من الصراخ، ثمّ قالت لوصيفتها مؤنّبة:

تكفيني خيانةٌ واحدة، ولعلّي أخاف أن أفقد حذري وينالك مالا تطيقين من غضبي.

فوعدتها الوصيفة خيراً.

ومثل الذي حصل لأول النهار، حصل مع الــزوج الثاني آخر الليل، وفي لحظة العناق المجيد اضطرب ذهن الوصيفة وأصيبت بالنــسيان وعوضــاً عــن إطــلاق الصرخات. أطلقت الشهقات وكان وما كان وأعيد الزوج الثاني الذي اسمه آخر الليل إلى السجن ودفع به إلى أقسى سجّان.

وفي المحاولة الثالثة قرّرت الملكة الزواج من رجلٍ محكومٍ بالإعدام بينه وبين حبل المشنقة خطوتان.. وعندما صارحته بالأمر أجابها إلى ما تشاء ووعــدها بالــصبر والإخلاص.

وعندما سألته عن الأســباب قــال لهــا: وحــدهم المحكومون بالإعدام يقدرون على الاحتمال.

فتأمّلت وجه الرجل المحكوم بالإعدام فوجدته غريباً.. وعندما حدّقت في عينيه وجدتهما مختلفتين وغــريبتين كأنّما رسمِ الخوف من حبل المــشنقة فيهمــا خطّــين، فأصبحتا تُشبهان عيني الوحش أكثر مما تُشبهان عيني الإنسان، فاضطربت الملكة والتفتت عن الرجل..

فالتفت إليها المحكوم وقال:

لا تستغربي يا مولاتي . . ليس من فرقٍ كبير بين الوحش والرجل المحكوم بالإعدام .

فكلُّ واحدٍ منهما يعلّق من أجـل الـسيطرة عليـه بالحبال.

فقالت الملكة: فكيف يكون الخلاص..؟

فقال الرجل المحكوم: خلاص الوحش أن تفتديه امرأة حسناء.

فقالت الملكة: فهل تعتبرني امرأةً حسناء..؟

فقال المحكوم: كل امرأة تفتدي متّهماً مثلي لتجعله من الأبرياء.. هي امرأةٌ حسناء.

فقالت الملكة: بعد الذي ألحقه الرجال بي.. من خيانةٍ وآثام.. بات الحذر منهم طبعاً غالباً، يفوق الذي بيني وبينهم من مودّة وهيام.

فقال المحكوم: هو الإعدام إذاً..؟

فقالت: بل أفتديك بمقدار.. كل يوم بيوم.. كما افتدت نفسها شهرزاد لأضمن ولاءك وأكسب الرهان.

فقال المحكوم: وكيف يكون ذلك..؟

فقالت الملكة: تحكي لي في كلّ يوم حكاية، تنسيني الوحش الذي فيك، فأغفل عن حقيقتك وأظنّك أجمل الأمراء.

فأجاب المحكوم: لعلّ الحكايات أهون على المحكومين من تنفيذ الأحكام، فدمعت عينا روح الأزهار

وأشارت إلى السجّان أن خذوا الرجل إلى الحمام لترميمه وتحضيره لليلة الزفاف.

وفي ليلتها تلك، عاشت روح الأزهار مع زوجها المحكوم.. ما لم تعشه وتحسسه مع رجل سواه، كأنّما يهبها حياته كلّها في لحظةٍ واحدة، كأنّما يهبُ حياتها وجسدها خلاصات المعنى والانتشاء والخطرات.. وظلّ على ذلك طويلاً وعميقاً.. حتى نسيت الملكة موعد الحكايات وغفت على حلمٍ رهيف وجسدٍ غارق بالمتعة والسبات.

وفي الصباح الطويل، عندما استيقظت وجدت ورقة تفصل بينها وبين الرجل المحكوم، فرفعت الورقة وكان مكتوباً فيها:

« ليس بوسع أحدٍ من الرجال أن يشكّل حرفاً أو حكايةً تفوق حكايات شهرزاد» .

فصاحت روح الأزهار.. الرجل يستطيع.. الرجل يستطيعِ.. لقد زرعت في كلّ خلية مني ألف حياة وحياة وجعلت منّي في ليلتي أجمل الملكات فانهض أيها الوحش الرائع، انهض وامتثل. فليس من حكاية تغني المرأة عن الرجل حتى ولو كانت ملكة. وعندما لم ينهض دنت منهُ وهزّته وبالغت في شدّه وجذبهِ.. حتى مات.

وكان صمتٌ من الأحنف، وارتياب من ابنة صاحب الشرطة، التي نهضت مضطربة ومضت إلى النافذة وكان

الديك قد غطّى رأسه بجناحه وغاب.. فهزّته وبالغت في هزّه لينهض ويوقف النهاية الدامية.. فما ظفرت منـــهُ بجواب، فارتدّت هلعة إلى الأحنف.. فما وجدتهُ، كأنّما حولّته الحكاية إلى ورقةٍ في كتاب.

حين فرغ القصر من الديكة والناس.. تأمّلت شهزاد وجه شهريار وقالت:

- عندما لا يكون الكلام مباحاً.. تنتهي الحكاية يا مولاي ..

ثم رفعت شهرزاد يدها وجمعت الزمان كلّه.. وباليد الأخرى نثرت الحكايات في الهواء، كما تنثر كفٌّ عابثة قبضةً من الرمال.

« انتهت »

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة